تنقیح



ولي الدين يكن

طبعت بمطبعة المقتطف بمصر

١٩١٠

مقدّمة

الصحائف السود مقالات نشرت في جريدة المقطم التتهيرة متتابعة . اردت ان انتقد بها بعض ما يقع في معترك هذه الحياة واخترت حين بدأت نشرها اتخاذ توقيع (زهير) تكتماً لكي لا يمنع رجال الادب من نقدها حق الود ولكن عرفني اخواني فرجعت عن الاختفاء وعدت الى توقيعي الاصلي . واستهللت بعض المقالات من صحائفي السود بابيات ومقطعات نظمتها على ما يناسب المقام وكنت اود ان استمر في كتابة هذه الفصول حتى ابلغها المائة او الاكثر غير اني خفت ملل القراء فاكتفيت بالقلائل وسأَعود الى مثلها بعد ان اختار اسماً جديداً

الله الهمنا ان نقول وبصرنا بما نقول فيهِ فعلى اهل السمع ان يسمعوا ويعوا ومن اصلح خطأً لمخطىءٍ مثلي استحق شكره

ولي الدين يكن

الصحائف السود

عيوب العائب

لقد آن ان يعلم الجاهلُ ويصحو من نومهِ الغافلُ
هوى زال من بعد ستين حولاً كذلك كل هوىً زائلُ
تخلّ فؤادي جمالاً كذوباً لقد غرّك الزخرف الباطل
فما انت مني اذا مد حبلا وصادك من بعد ذا الحابل
عيون المها لا تصيب القلوب وللعقل من دونها حائل
فقل للحاظ وربّاتها لقد اخطأ النبل والنابل
اذا ما رجعت الى شيمتي فأهون بما يعذل العاذل
مواليَّ جاروا على عبدهم ولا بأس جائرهم عادل
فكم قايسوهُ بمن قايسوا وكم ثاقلوهُ بمن ثاقلوا
ولما رأوا فضلهُ راجحاً بكوا اسفاً انهُ فاضل
لي الله ما لي اجامل قوماً اجادوا الصنيعة لو جاملوا
اذا انا واصلتهم قاطعوا وان انا قاطعتهم واصلوا

انا اعزك الله شيخ محدودب الظهر . ابيض الفودين . متثاقل الخطا . مرتجف الاعضاء . أبو تجارب . ابن ستين . اخو اسفار . جواب ارض . تقاذفت بي فلوات وتلقفتني فلوات . فكم سهل كالصحيفة مشيت بهِ مشي القلم . وكم كهف مظلم كالفؤاد اقمت بهِ مقام الامل . صرت الى كثير من اقطار الارض لا مباليًا سرًى ولا خائفًا تهجيرًا . ما صاحبي الاَّ عصا اتوكأُ عليها في تسياري واقيس بها اعماق مخاضاتي وقد ضجَّ نضوي ومل ركابي بعد ان فت الزمان في عضدي واشل بالكبر ساعدي . واذ وهن العظم مني ولم تبقِ الايام من شبابي الاَّ تباريح ذكر يجددها طلوع البدر وهبوب النسيم وضحك النور وتسلسل الماء واصطفاق الراح فقد آن ان اخلد الى مصر وانشر بها كتاب شجوني

عرفت في بعض اسفاري شيخًا هو اكبر مني سنًا واوفر تجربة . وما زال ينتقص الدهر من اطرافهِ حتى اصبح كالترس . لهُ وجه كحجر الشحذ وانف كالاولب تحسبهُ ثابتًا وهو يدور وناظرتان كمصباحي مسجد في اخريات الليل . تضاءل نورهما وذهب لمعانهما فهو يتخيل بهما الاشياء ولا يراها . اقام باحدى بوادي نجد جم الكلاء خصيب المرعى واتخذ لهُ من اغصان الشجر بيتًا يأوي اليهِ

من قرّ الليل وحمّارة القيظ . فلزمت هذا الشيخ اياماً يحبوني نصحهُ ويعلمني علمهُ . فكان مما قال لي : اذا هممت بعيب الناس فاجعل نفسك اول من تعيب . فمن لم يعلم من نفسهِ زلاتها لم يعلم من الغير زلاتهِ ومن كان بعيداً عن معرفة حقائق ذاتهِ فهو عن معرفة حقائق الناس ابعد . وقد عاهدت الله لا آخذت امرأً قبل موآخذة نفسي وها انا ذا موفيها هنا حسابها لكي انتقل الى غيرها خالي القلب قائم الحجة

كان ابي رجلاً من اغنياء التجار بالبصرة . لم يرزق من الذكور غيري ولا من البنات غير اختي فاطمة وهي اصغر مني بستة اعوام . علّمنا كلينا القراءة والكتابة واحضر لنا مؤَدباً يؤَدبنا فروينا الاشعار وحفظنا سير المتقدمين وبرعنا في النظم والنثر . فلما انقضى زمان الطلب وبلغت مبلغ الشباب اتخذت رفقة لي من ابناء التجار فكنا نخرج ايام الجمعة خارج البلد ونجلس على شاطئ دجلة فيؤْتى لنا بالطعام وبالشراب فنصيب منهما حظاً وافراً . كل هذا ونحن نساقط حديثاً كالدر وهي عقدهُ حتى اذا مالت الشمس لتغرب نهضنا راجعين وتودعنا على ان نتلاقى في الجمعة الآتية . وكان ابي مشتغلاً بالعبادة منقطعاً عن الدنيا فلا يحب الراح ولا

شاربيها ولا الميسر ولا من يجيلون اقداحه . وكنت اقول لهُ اني كنت في رفقة لي نسمع الواعظ واننا خرجنا بعد ذلك الى بعض البساتين فصلينا فيهِ صلاة العصر وصلاة المغرب فيصدّق قولي ويدعو لي بالخير . وقد عاش ابي ما عاش حتى قضى نحبهُ ولم يعرف من اسراري شيئًا . ولا انسى لومهُ اياي ذات يوم على قول الشعر وقولهُ لي : «يا بني لا تكن شاعراً . ان الشعراء لمن اهل النار .» فتبسمت في وجههِ ووعدتهُ طاعةً وامتثالاً واخفيت عنهُ منذ ذلك اشعاري

فلما استحوذت على ارثهِ بعد وفاتهِ جعلت ابذّر المال تبذيراً وهمت على وجهي في اللذات واتخذت لي من الندمان كل خفيف الروح ظريف الشمائل وولجت معاهد المقامرين واهل البطالة فما دار عليَّ الحول الاَّ املقت املاقًا . وكانت امي خطبت لي إحدى فتيات البصرة وهي فتاة في السابعة عشرة من عمرها ذات وجهٍ صبيح وأَدب غض وخلق سوي فتزوجت بها ورزقت منها بنتين هما آيتان في الجمال . وتزوجت اختي من رجل غني شرس الخلق بخيل جاهل ولم تسأَلها امي رضاها بل رغبت فيهِ لكثرة مالهِ فكانت عاقبة التزويج شرًّا وماتت اختي في روق شبابها غمًّا وحسرة

ولحقت بها امي بعد اشهر قلائل .

وحين اجدب حظي وافل نجم دولتي ولم يبقَ لي طارف ولا تليد وامسك اصحابي عن اقراضي وبري وازدحم على باب بيتي غرمائي عمدت الى الشعر استدر بهِ هبات قوم من أُولي الثراء واهز بهِ اعطاف كبريائهم · فما افادني ذلك سوى ذل السؤَال واثم الكذب · هنالك وجهت امرأَتي وبنتي الى بعض اخوتها وهم يسكنون ضيعة لهم خارج البصرة وودعتهنَّ ودموعي تجمجم كلامي حتى اذا ارخى الليل سدولهُ خرجت تحت ظلمائهِ لكي لا يراني مطالب لي فيأخذ بطوقي وفارقت بلدي وارض عشيرتي ······

ولم يهنأْ لي عيش بعد ذلك وايقنت اني كتب عليَّ الشقاء ما دامت الحياة

فاذا دجا الليل وخلوت الى همومي عاودتني الذكرى فنبا جنباي عن مواضع الرقاد وان هبّت الصبا جددت حنيني واستعادت اشجاني · واخبرني جماعة من اهل البصرة لاقيتهم في بعض اسفاري وهم لا يعرفونني ان بنتيَّ كبرتا وان قد كثر خاطبوهما وان امهما ابت تزويجهما وقالت لا احب ان افرح وابوهما غائب · ولقد حاول اخوتها ان يثبتوا لها موتي فلم تصدق

هذه قصتي او هي واقعة من وقائع حياتي ذكرتها لتكون بيانًا لسيئاتي . ولقد استقام بعدها امري في فاقتي ولم تحل فتن الحياة دون طلابي الحكمة وتجريبي الايام . ثم رجعت الى البصرة ولبثت بها حتى تزوجت بنتاي . فاستصحبت امرأتي لتكون معوانًا لي في كبري وهبطت مصر واني لن ابرحها الى ان القى حتفي

اقول : قد تقدم في بيان ذنوبي ما لا يسعهُ العفو ولا يمحوهُ القدم . هذا مع ضعف في الاخلاق. وسوءٍ في التربية . وكيف يختار الكذب على ابيهِ رجل حسن تأديبهُ . وانا بني الشرق لتزكوا احسابنا ويجم مالنا ويعظم نشبنا فلا يفيدنا ذلك الا غواية في الشباب وندماً في الكبر . ولو كان ابي احضر لي مؤدباً يعلمني الحكمة مكان الشعر أو مع الشعر أو أدخلني مدرسة من المدارس التي ليست ببلادنا اثقفت الغربة عودي واغناني تعلم النافع عن طلاب النفع بالسؤال .

كم من فتىً مثلي طيب الارومة ثابت الاصل طويل النسب رفيع البيت ربي على الدلال ووثق بثراء ابيهِ فرمى بذهبهِ يمنة ويسرة فلما خرج عن مالهِ خرج عن مجدهِ ولم يدخر ما يكشف غماءَهُ من علم تعلمهُ في صباه فصار الى شقاء الجد ونكد الطالع

وضل في هذه الدنيا ضلالا

قالوا ان تعليم البنات مهيع الى افسادهنّ وما في القائلين بذلك من تعلمت أُمهُ وعرف فسادها · ان هو الاّ لجاج مبين · ابى القدماء مزايلة عاداتهم فضلوا واضلوا وحسبوا عصر بنائهم مثل عصرهم فشقوا واشقوا · حتى اذا كانت العاقبة اذا هم في اجداثهم راقدون · لا يسمعون فتقص عليهم قصص من خلفوا ولا يتعظ بمصارعهم من عاش بعدهم ورأى خطأهم ومن لا تعظهُ العبر لا تؤَلمهُ وقعات الصروف

المرأة

ألا ما لسيدتي ناحبه ... بروحي مدامعها الساكبه
يكاد على خدها الاحمرار ... يبين لناظره لاهبه
وليست بمعرضة في دلال ... ولكن ارى انها غاضبه
ألا صدقت هذه العبرات ... وقد كنت احسبها كاذبه
لمن يذخر الود مسلوبهُ ... اذا هو ارضى بهِ سالبه
تمنيت لو كتبت ما بها ... ولكنها لم تكن كاتبه
تفتش ليست ترى صاحباً ... يقاسمها الحزن او صاحبه
لقد غلب اليأس آمالها ... وآمالها كانت الغالبه
ازيلي الحجاب عن الحسن يوماً ... وقولي مللتك يا حاجبه
فلا انا منك ولا انت مني ... فرح ذاهباً ها انا ذاهبه

شهدت مصارع ثلاث نسوة · احداهنَّ قتلها الاستبداد والثانية ارداها الجهل والثالثة اودى بها الحجاب · فقل في ثلاثة انجم طاعت بافق الصبا ثم احتواها الافول · شباب غض اذوى ريب المنون بهاره وانس قريب ابعدتهُ وحشة القدر · فاما التي قتلها الاستبداد فامرأة جركسية كانت مقيمة مع اهلها بقرية من

قرى (العزيزية) التابعة لولاية (سيواس) · اشتراها احد رجال (س · · · باشا) من ابيها بخمسة وعشرين جنيهاً · فلما قدم بها الاستانة على سيدهِ اهداهُ اياها · فاسكنها حرمهُ وكساها وحلاها حتى اذا خطرت لديهِ رأى في مواطئ قدميها مواضع الجباه العاشقين فخطب ودها فنظرت اليهِ بعينين نجلاوين لاواقي لقلب رمتاهُ وقالت :

مكاني في خدمة الامير احب اليَّ مما عداهُ

فما زادهُ ذلك الاَّ حباً لها واستهتاراً بهواها وما زادها الاَّ نفوراً منهُ و بغضاً · فتمكنت ذات يوم من انفاذ كتاب لابيها تشكو لهُ ما تجد من اشتياقها الى امها واخواتها وتعلمهُ بما تحس بهِ من اضمحلال قواها · فاصابت شكايتها موضع الرحمة من فؤاد ابيها واقام اياماً يتزود للسفر اليها · · · فلما عاد من سفرتهِ قالت لهُ امرأتهُ كيف حال من بعتها فقال رحمة الله عليها · · ·

واما التي ارداها الجهل فغانية كتمثال فينوس استصحبها ابوها الى بيروت وهي في الخامسة من عمرها وادخلها هنالك احدى مدارس الراهبات اخذاً برأي صديق لهُ · فلما اتمت علومها التي في مدرستها اخرجها ابوها وقد بلغت الثالثة عشرة واوجب عليها

الحجاب ومجاورة البيت ومنعها مطالعة الكتب الافرنجية · ولقد قالت لهُ اذن لمَ علمتني ما لا تريد ان اعمل بهِ ؟ فقال لها لي الامر وعليك السمع والطاعة · فدعي الجدال ولا تتشبهي ببنات النصارى · انت والحمد لله مسلمة وابوك مسلم وامك مسلمة · فامتثلت المسكينة وفي النفس ما فيها

فبينا هي ذات يوم في غرفتها اذا بأُمها داخلة عليها فما تقابل النظران الاَّ بادرت الام الى ابنتها قائلة : جاء اباك خاطب يخطبك منهُ · فقالت الفتاة لا أُريد الزواج · قالت الام لكنهُ فتى جميل كانهُ احد ابناء الملوك . قالت الفتاة ما لي وجمالهُ وغناهُ ومشابهتهُ ابناء الملوك . انا لا أَعرفهُ فلا أُريدهُ

ثم مضى شهران وفي أَول الثالث زفت المجهولة الى المجهول

ثم مضى شهران فدخل عليها زوجها يوماً وفي يدها صورة رجل مكشوف الرأْس عليهِ ثياب قواد الجنود وفي يده قبعة · ففار دم زوجها وثار غضبهُ وادركتهُ غيرة الزوج فعمد الى خنجر كان يحملهُ فشق بهِ بطن امرأَتهِ فاذا هي جسد بلا روح . ولما تأَمل الناس ورجال القضاء الصورة التي أَغضبت الزوج اذا هي صورة واشنطن الشهير محيي مجد اميركا !!..

واما التي قتلها الحجاب فقد تزوجها رجل من اهل ادنه شديد الغيرة . دخلت بيتهُ ليلة زفت اليهِ ولم تخرج منهُ ابداً حتى اذا مرضت وثقل عليها المرض واشتد الالم دعا زوجها طبيباً واخذ يصف لهُ ما تشكوهُ . فقال انا لا اداوي على السماع ولا بد من رؤْية المريضة وفحص موضع العلة . فابى الزوج الأَبيُّ ذلك . وما مضت ايام قلائل الاَّ وقد ازروها في اكفانها وشيعوها الى منزلها الابدي . من ضريح الى ضريح

واعرف نوادر غير هذه لا اكاف نفسي أَلم ذكرها ولا اهب القراءَ كمد العلم بها . هذا فؤَاد كالبركان . لهُ ايام يثور فيها . ولهُ ايام يسكن فيها . وكم لي عند الايام من ثارات ولكن ضعف الطالب وعزَّ المطلوب

على انني راضٍ بان احمل الهوى   واخلص منـهُ لا عليَّ ولا ليا

فواعجبا . الله يخلق هذه الصور فيمسح عليها من الجمال ما يستخف لب الحكيم و يودع في تلك الارواح لطف الالهام ونور اليقين فاذا هي تكاملت في اشكالها تخاطفتها ايدي المتغلبين فقالوا هذا متاع حسن ولهو ومسكن لذة ومستقر هوى !!! ضلال في ضلال

اما لو كان في الغانيات مثل جورج ساند ومثل مدام دونواي

لتقاعست همم المستبدين

رأَيت رجالاً يبذّرون المال تبذيراً فاذا اقاموا الافراح نصبوا السرادقات ورفعوا الاعلام واوقدوا الزينات ومدوا الموائد وجاؤُوا بالمغنين والمغنيات واستكملوا اسباب المسرات . كل ذلك ليدخلوا بامرأَة لا يعرفونها . خطبوها لانها خلقت لتخطب فاذا صارت في ايديهم اياماً ملُّوا حديثها وسئموا قربها وراحوا يفتشون على غيرها فمثلهم كمثل الطفل المدلل يرى اللعبة فيبكي لابيهِ وامهِ حتى يبتاعاها لهُ . ثم لا يلبث ان يحطمها ويطرحها جانباً ليأْتيا لهُ بغيرها

هذا عصر غارة شعواءَ يشنها المجددون على شيعة الرأْي القديم وما ضرني وقد اشتعل الرأْس شيباً ان اتقدم صفوف الشبان . فان لم اكن صاحب امرهم فما عليَّ ان اكون حامل رايتهم . فمن لي بصاحب تحرير المرأَة ان ينفض عنهُ تراب القبر ويخرج الى الاحياءِ ليرى مبلغ استفادتهم من رأْيهِ . اما انهُ لو فعل ولن يفعل وقرأَ ما يكتبهُ قوم في ابقاء الحجاب والتحكم على امهات الاجيال الآتية لَكرَّ راجعاً الى مرقدهِ واغمض عينيهِ حتى لا يرى واذنيهِ لكي لا يسمع وانشد قول الحكيم القديم

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد

هو وهي

فصل من فصول الرواية

عجباً ينام الناس ليلتهم وأبيت أسهر ليلتي وحدي

وتظل عندهم احبتهم وأظل ليس احبتي عندي

أأكون سيدهم وحاسدهم ويفوز جدّهم على جدي

فلا ملأنك يا عيون قذى ولاسهدنّك في الدجى سهدي

ولا ملأنك يا قلوب اسىً ولاوجدنك دائماً وجدي

لا لا أموت بحسرتي أبداً ويسرُّ قوماً عيشهم بعدي

في قصر من قصور الملك تحت ليلة من ليالي الشتاء . متغوّرة النجوم . حالكة الجوانب . رجل كالراهب المتبتل . بادي الكمد . مستطرد الخطوات. زائغ البصر . متخاذل الاطراف ينشد بلسان حاله هذه الابيات

اخذ يتمشّى في حجرته ساعتين او اكثر مطرقاً مفكراً اسئماً كليلاً . فلما توسط المكان رفع رأسهُ ونادى: يا هجران . فدخلت عليهِ بيضاء اللون . صفراء الشعر . بين القبيحة والوسيمة . فلما مثلت بين يديهِ قال :

— أما آن لك يا هجران أن تصدقيني وتتعظي بصاحبات لك حلت بهنّ نقمتي . فاطرقت المرأة ملياً ثم قالت :

— اما اذا لم يكن من الصدق بدٌّ فلا يسعني الاّ الاخبار بما أعلم

هاتي ما عندك

— الذي اعلمهُ انها لا تحب مولاي · ما رأيتها يوماً تطرب لذكره كما تطرب ضرائرها ولا رأيتها تعجب بشيءٍ يكون فعلهُ كما تعجب اترابها · ووالله لا ادري مالها · ولقد اخبرتها احدى جواريها خبراً · · ·

— ما قالت لها

— قالت لها ان مولانا قتل اثني عشر تلميذاً · صبَّ في فواههم الرصاص. فبكت وقالت اللهم هذا ظلم لا يرضيك

— كل ما تخبرينني بهِ خارج عن سؤَالي · انا اريد ان اعلم كيف احرقت الستارين

— هذا سر لا يعلمهُ سواها

— اذهبي فقولي لها اني قادم عليها

فخرجت الوليدة وبقي هو وحدهُ ينظر الى السقف ولا يرى ما فيهِ . ثم تقدم الى خزانة سلاحهِ فاخرج منها ثلاثة مسدسات جعل اثنين منها في كمّهِ وابقى الثالث بيمناهُ وخرج بعد ذلك الى حيث خرجت الوليدة

***

هي بنت اربع وعشرين سنة · هيفاء ناحلة يعلوها اصفرار من

خوف . لها بسمات كأنها بكاء . عليها ثوب ازرق يحملها سرير مفخم كأنهُ صنع لهـا نعشاً وعلى رأسها وصيفة لهـا تنصت الى حديث كانت بدأتهُ . لله نفوس يسكنها الارض لتلبث فيها قليلاً وترجع اليه سراعاً . قد تتلألأ في بيت من الشعر ثم تسمو الى مقاصير الملوك فتقيم بين عز الجمال وذل الاسر حتى تفيض حيث تخشع الابصار وتسكن خافقات الجوانح

فاستطردت هي حديثها قائلة :

— نعم يا جوذر بين شجيرات الليمون في حديقـة الشتـاء . للحين المكتوب والقدر المتـاح . كنت غداة يوم نبهتني أصوات العصافير تحت كوّة حجرتي . فخرجت متبذلة مرسلة الغدائر . اشم الليمون على اغصانهِ ونفسي لا تطاوعني الى اقتطافهِ . واني لكذلك اذا يد تمس احد كتفيّ . فالتفت فاذا هو كالسبع وقف شعرهُ بيافوخهِ . وتطاير الشرر من ناظريهِ . فتأمل وجهي قليلاً وقال لي لا تخافي . فوالله ما طاب لي عيش بعدها ولا قرَّ بي قرار . ولقد رفعني قدراً وجعلني ثالثة نسائهِ وهو مع هذا كلهِ موتي الذي اتوقع دنوّهُ وبلائي الذي اخاف نزولهُ . هنالك غلب عليهـا البكاء فلم يسمع بالمكان الاّ شهيق متقطع واعقب ذلك سكون

لا يشوبهُ حراك

ايها العرش لا تفتن ملكات الحسن فقد بكت الساعة فوقك بلقيس

***

مكان رحب · فيهِ ما يزيغ الابصار من متاع الدنيا · يتوسط رحبهُ شخصان تتكسر عليهما اشعة تلك الثريات وهي تتلألأ بانوار الكهرباء · ثم هو وهي · · ·

هو يقول :

— ربَّ دلال ادَّى الى قطيعة وربَّ عناد احال النعم نقماً · وبيني وبينك لو شئت وفاق تزيدهُ الايام رونقاً واحكاماً · وبيني وبينك لو رمت خلاف يقضي بهِ الموت الزؤام · لا تخدعيني بهذه العبرات . انا املك منك لها . فكم خدعت بها سفيراً وكم استوجبت حقاً . ولما خلوت الى آرابي ضحكت ضحكاً . ما اظنك تحسنين مثلهُ خبريني ما يشكيك مني

— سوء ظنك لا غيرهُ

— أهذا مبلغ ادبك وانت ربيبة قصري ونائلة نعمتي

— منٌّ وسرف . ثم تهمة بعد ذلك لا تسفل اليها نفسٌ في الوجود

— ألم تحرقي الستارين لتضرمي عليَّ قصري

— كلاَّ

— أتحبينني

— كلاَّ

— ألا يروقك ان تعيشي معي مذ الآن

— والله ما استطبت ولن استطيب مما انا فيهِ شيئًا . واذا استطالت يمين القـدرة على بعض الجسم . فكم فؤاد يقصر عن ادراكهِ المتناول

ليكونن ذاك الفؤاد اذن مطعم الدود وليسكنن خفقانهُ حيث نشأت كبرياؤُهُ اشربي هذه الكاس التي على الخوان

تتقدم هي بوقار الى الكاس وترفعها بيمينها الى فمها ثم تنظر اليهِ بعينين يخالطهما نعاس الموت وتقول :

— غداً نتقاضى الى من لا يخشى ظلمهُ

....

⁂

هو يقول لجماعة من خاصتهِ :

— عليَّ بابي لحية . وما هو الآن وقف بين يديهِ . يتكلم

الشر على وجههِ وهو صامت . فلما رآه سيدهُ قال

قضي الامر . وقد الحقت بها اثنتي عشرة جارية من جواريها .
انا جئت بالذخر الغالي فانظر الى أي الكنوز انت بهِ صائر . . . .

٭٭٭

سيدتان على قبر امرأة تتحادثان

— من لعيني حبيبتنا ان تنظرا الى سلانيك فلقد نظرنا اليهِ ساعة رحيلهِ

— من العجائب ان يكون بين الناس من يبكون ايامهُ . وينسون مثل ساكنة هذا الضريح

التعصب

لي رفقة امجاد وابناء امجاد . اوتوا الفضل ورزقوا النهى . تجمعني واياهم مجالس سمر كلما خفت عنا تكاليف الحياة . ففيهم الشاعر والكاتب والعالم والطبيب والفيلسوف كل يفيض من مكتسبات علمهِ ما يشرح صدور مستمعيه . قال قائلهم ذات يوم ياليت فينا فقيهًا يعلمنا من ديننا مثل ما نعلمهُ من دنيانا قالوا لهُ وماذا يهمك من دينك وانت مصدق لهُ لا تشك في امر من أُمورهِ .

قال ياسبحان الله وهل في زيادة الخير بأس . قال كلاّ فقال احد الرفقة غداً آتيكم برجل فقيه اعرفهُ منذ زمان مديد يسكن داراً مجاورة لداري . قالوا ذلك فضل نذكرهُ لك مع ما سبق من مثله

وفي مساء اليوم التالي انتهينا الى بيت رفيقنا الطبيب . فانتظم مجلسنا واقمنا ننتظر قدوم صاحبنا مع الفقيه . وقد اجمعنا على التزام الوقار وترك ما كان يقع . بيننا من المزاح وان لم يتجاوز حد الادب والاحتشام . وما طال بنا الجلوس ساعة الاّ وصاحبنا الكاتب داخل علينا يقود رجلا كالجمل على رأسهِ عمامة كالهودج متلفعاً رداءً كانهُ قطعة من اديم الليل . فحيانا وحييناهُ واجلسناهُ في صدر المجلس وقلنا لشاعرنا هات شيئاً نفتتح بهِ حديثنا . فقال :

— عنَّ لي خاطر ليلة امس بعد ان نزعت ثيابي ولزمت فراشي فقلت ابياتاً ثلاثاً اظنني لم يسبقني اليها غيري

فتبسم الفقيه وقال انا احب الشعر وان كنت لا اقولهُ فهات ما عندك وما اراك الاّ مطربنا فانطلق الشاعر ينشدنا قولهُ

سيدتي اني امرؤٌ شاعر	آخذ من حسنك ما انظمُ
تلهمني عيناك معنى الهوى	فكل ما اقولهُ ملهمُ
قد كنت ارجو منك لي رحمةً	لكن قلوب الغيد لا ترحمُ

قال الفقيه -- المجاملة تقضي بمدح الابيات والحق يقضي بنقدها فاي الحكمين احب اليك

قال الشاعر — حكم الحق

قال الفقيه — هذه اقوال ليست بعصرية وللعصر العشرين ذوق خلاف ما كان بالعصور الماضية . هلاَّ قلت مثل اسكندر سومي الفرنسوي وقد توفي منذ نصف قرن في قصيدتهِ التي سماها الفتاة المسكينة : « انظر الى الحجر حيث تفجرت آلامي التمس آثار المدامع التي ربما اراقتها عليهِ امي عند تركي » هلاَّ قلت كما قال اندره شينييه في قصيدتهِ التي سماها الصبية الاسيرة : « لئن مرت ايام فربما حلت ايام فوا اسفاه اي شهد لم يمج مذاقهُ واي بحر لم تهج امواجهُ » هلاَّ قلت مثل لامارتين في قصيدتهِ التي خاطب بها البلبل « وهذا الصوت الغريب الذي اسمعهُ انا والاملاك . وهذا الزفير الخالص في الليل . هما دون معانيك ايها الطائر المطرب » فلم لا تقولون ايها الشعراء مثل هذه المطربات

فاكبرنا الرجل وزاد في عيوننا هيبة وقلنا فقه وادب . هنا والله ما تقرُّ بهِ الاعين وتركنا الشعر وانتقلنا الى غيرهِ فما فتح احدنا باباً في علم يعلمهُ من طب وحكمة الاَّ نفذ منهُ ذاك الفقيه . فأَفاد

وأجاد فداخلنا الريب في حقيقتهِ . واخذ كلٌّ يسر الى من بجانبهِ ما يراهُ في الرجل. فقلنا نستنطقهُ في علمهِ الذي هو الفقه ونستفتيهِ في اشياءَ ربما كنا غير عارفين بحقائقها . واذا كان هذا قدرهُ في امور لم ينقطع اليها فكيف بهِ في ما هو منقطع اليهِ فقلنا لهُ

أتأذن لنا في استيضاح ما اشكل علينا من امور الدين

قال — نعم . سلوا ما شئتم

قلنا — هل لبس القبعة (البرنيطة) محظور ديناً

قال — كلاَّ . وفي لبسها منافع جمة . فهي تقي الرأس والوجه حرق الشمس وتحفظ العين من اشعة نورها

قلنا — هل حجاب المرأة واجب شرعاً

قال — لا . واي شرع يكون شقاءً على العباد

قلنا — ولمَ يتخرَّص بعض الناس بان ذلك حرام وذاك واجب ويقيمون القيامة علينا وعلى من يقولون بمثل قولك الآن

قال — يفعلون ذلك تعصباً واستبداداً وهم يعلمون من الاشياء ما تعلمون . وهم بعد ذا يحلون ما يريدون ان يجعلوهُ حلالاً ألا ترون كيف ينظرون الى النساء يجررن اذيالهنَّ ويتهالكنَ في مشياتهنَّ . وليس على وجوههن الاَّ براقع تشف عما تعلوهُ . فهن

حاسرات مقنعات . ولكن لا يعارض في ذلك معارض ويرون الناس يأتون من الموبقات ما تندى لهُ الجباه وتحمر الوجوه فلا يعارضونهم ولكن ويل لمن وضع على رأسهِ قبعة واجتاز طريقاً ومنهم من يقول الربا حرام واوقاف الاستانة في زمان الاستبداد كانت تقرض المال بالربا فتهب الرجل قدر حاجتهِ من القرض وتجعل الربح ثمن مصحف يشتريهِ من الولي ثم يهبهُ اياهُ . وانتم تعلمون الحيل الشرعية وما يأتيهِ اكثر الناس من المتمسكين بالدين

قلنا — هذا كلام لم نسمعهُ من غيرك من رجال الدين ولكن هل تتكلم مع اخوانك الفقهاء في مثل هذا الباب

قال — هذا صعب . واخشى ان استثير غضبهم فيصيبني منهم اذى كبير . وهل فيهم من يجهل شيئاً مما ذكرت لكم ولكنهم متعصبون والمتعصبون لا تجدي معهم المناظرة ولا يقنعهم الدليل

قلنا — وكيف الخلاص من هذه العادات التي اثقلت اعناقنا واطالت شقاءنا . وكلما هممنا بالفوز في معترك الحياة تكاثرت علينا جموع التعصب فانقلبنا مخذولين مدحورين

قال — عليكم ان تشكوا الى الشعب استبداد رجال التعصب ولكن بعد ان تعلّموا الشعب او تكثروا فيهِ عدد المتعلمين وانا لي في

بيتي مكان يحضرهُ كل جمعة اناس يستمعون دروسي وهم قليلون ولكنهم مستمرون على الحضور ولا اقرأ لهم الاَّ ما يفتح اذهانهم وينير عقولهم . ولما بلغ الى هذا الموضع من كلامهِ نظر في ساعتهِ ونهض واقفاً واستأذننا في الانصراف فودعناه آسفين

فلما ولىَّ قلنا لصاحبنا ولم يذهب معهُ. على من قرأ هذا الاستاذ

قال — على مشايخ قرأ عليهم غيرهُ

قلنا — ومن اين لهُ هذه الحرية

قال — الحرية طبع لا تطبُّع

ثم سألنا صاحبنا ان لا يخل بهِ علينا كلما وجد سبيلاً اليـهِ فوعدنا ذاك وما مضى على مجلسنا هذا شهر الاَّ تمزق شملهُ ففني اكثرنا وهرب بعضنا وبلغنا بعد ذلك ان هذا الفقيه سجن بالاستانة ومات مسجوناً رحمة الله عليهِ

الكهول والشباب

أَما لو يفيد العتب لارتاح عاتبهْ دعوهُ فهذا البرق لا بدَّ كاذبه
قلوبكمُ هامت كما هام قلبهُ وامس طلبتم ما هو اليوم طالبهْ
فلا تحسبوهُ خاسراً ليس خاسراً تجاربكم زالت وهذي تجاربهْ
لهُ مثلهُ في أُنسهِ ونفارهِ يراضيهِ اياماً وأُخرى يغاضبهْ
بأَية عين ام لأَية زلة نواقبهُ في حبهِ ونحاسبهْ
أَلا انهُ سهم اصاب فؤَادهُ وكل فؤَاد ذلك السهم صائبهْ
تذكرت ريعان الشباب الذي مضى فأَحزنني أَن لن تعود اطايبهْ
لقد كنت اقضي ليلتي في حديثهِ يسائلني عن حبه فأُجاوبهْ
سمعت بنات الورق تشدو ضحية فقلت اسمعوا · هذي الطيور تخاطبهْ
لها مهج فيها هوًى تحتهُ اغلى فإما سرت ريح توقد لاهبهْ
ارى اليأس ادنى للشفاء من الرجا اذا عز مطلوب سلا عنهُ طالبهْ
وكم من جوى مستكمن في جوانح اهاب بهِ لوم فجاشت غواربهْ

عصرنا عصر الشباب · دالت دولة الكهول ومضت تتعثر باذيال جدودها المولية · فويل للعابد في صومعته وويل للواعظ في بهرة حلقتهِ · وبعد فما هنالك الاَّ كما قال ابن بحر · شق مائل

ولعاب سائل · وهــذا اوان التجديد · لكل سؤدد فيهِ سبيل : السابحات في البحار والمحلقات في السماء · وناقلات الاصوات بين متباعدات الفجاج · فمن كان لهُ فوق هامات النجوم مطلب سما اليهِ ومن كان لهُ تحت مركز الارض مرام هبط عليهِ · اهلاً بك يا ابا العشرين ومبتدأ الحق ومستهل المجد

قال لي قائل : كل هذه زخارف باطلة تأتي فتستضحك وتولي فتستبكي ولقد كنا اسعد منكم حالاً واهدأ بالاً · كان يخرج الواحد منا في جماعة من اصحابهِ · يتقدمهم الخدم · بايديهم الفوانيس وفي يدهِ عصاهُ مذهبة القبضة مفضضة الكعب كأنها قضيب الملك فيغشى دار صاحب لهُ · رحبة القاعات · على حيطانها التصاوير وامامهم فوّارة يرى ماؤُها كريح من البلور · فاذا جلس في صحبهِ جيء لهُ بالشبكات مملوءة من التبغ بكل زكي الرائحة كالعنبر · فمن صوري ومن كوراني ومن جبلي · وتدار عليهم القهوة في اباريق من الفضة وطاسات مثلها ممزوجة عنبراً · يوقد لهم العود فيفوح عبيرهُ وتعبق بهِ جسومهم كذا يقضون اوقاتهم مستمعين سير الاولين ممن اتقوا وعملوا صالحاً · وانتم يا ابناء الجدة ما تصنعون ؟ تتوافدون الى الحانات والنوادي فتنغمسون في الملاهي وتذهلون عن

مشاغلكم بلذاتكم وتفخرون بعد ذلك علينا بهذه الجبال الحديدية التي تدب فوق ارضكم وتهز اركان بيوتكم · تحسبونها تغنيكم ولن تغنيكم شيئاً

قلت : — على رسلك ايها الشيخ · انت تنظر ولا ترى · كنت احسبك في بعدك اعقل منك في قربك · فاي فخر تريد ان تجاذبنا طرفيهِ واي مجد سبقتنا في لذاتك اليهِ وقصرنا عن مباراتكم فيهِ ؟ تلك المجالس التي محفلت بكم اخلت امثالها من ورثتكم · فلا تلوموننا ولا نلومكم · كل عصر لهُ دولتهُ ورجالهُ · فان ساءتكم هذه الركائب الحديدية فما زالت العيس تستولد · وان راعكم ما ترون من زخرف فما خلق الله الجفون الاَّ لتغمض دون ما تكره وتفتح لما تحب · ونحن وان كثرت في قلوبنا شواغلها لا نزال نطلب لكم من الحياة المزيد ومن السعد المستمر · ولكنكم تنظرون ما لنا فتودون لو يكون لكم وتحسون ما بكم فتتمنون لو يصبح بنا وفي التمني من البطل ما ينسي فضل تسليتهِ الحزين

هذا ما بيننا وبين اهل القرون الاولى وان انا الاَّ من تابعيهم فاذا لم يكن ابن الستين كهلاً يكون ماذا ؟ غير اني من اوائل من فتحوا باب الجدة لاهل النشأة المحدثة · فسلام عليَّ يوم ولدت

ويوم اموت ويوم ابعث حيا

هاتوا رجلاً ممن سكنوا البادية واجعلوهُ في قصر الاليزه ودعوهُ حتى يسكن روعهُ وتثوب اليهِ نفسهُ ثم سلوهُ ماذا يرى . ثقوا انهُ لا يجد من الدعة ما يجد في بيت من الشعر . فاذا دنت منهُ احدى عقائل باريس في حسن منظرها وكأنها الطيف لطفاً والامل بهجة قال لها انت فداء سلمى في برقعها وفي خمارها تجرر نصيفها وتتهادى في دمالجها وخلاخلها واساورها

للنعيم قلوب وللشظف قلوب وليس للحسن شكل معروف ولا هيأة خاصة ولا حال مستقلة بهِ لكل ذوق حسن ولكل حسن ذوق. وانما اريد ان آتي في هذه السطور بعبرة احب ان يحتفظ بها من اعتبر . فان من اشد الظلم ان يتحكم الوالد في ابنهِ وان يربيهُ على قديم زمانهِ ويأبى ان يجهزهُ لجديدهِ وقد فاتهُ انهُ يظلم ابنهُ ويظلم من خلق ليعاشرهم . والاخلاق والعادات كالملابس والازياء . فاذا سمج بابن العصر الجديد ان يرتدي اردية اهل الوبر فكيف يجمل بهِ ان يعيش بعقولهم

كان لي صديق استحدثتهُ في احدى ولايات الاناضول خلق ذكياً وترك لذكائهِ الذي خلق معهُ فلم يزد عليهِ شيئاً . كان اذ

وصفت لهُ عواصم اوربا كلندن وباريس ونيويورك وبرلين وغيرها وذكر لديهِ ما بها من معجزات الحضارة وعجائبها فترت نواجذهُ ضحكاً وظن ماقيل لهُ مبالغة وغلواً. وطالما رد على من يخبرونهُ بتلك الاخبار بانها مخترعة لا حقيقة لها ولا اثر. وكان لصديقي هذا ولد هو اكبر اولادهِ يحبهُ ويدلله. ولقد ادى بهِ فرط الدلال الى ترك المدرسة فذهب الى احدى دوائر الحكومة وطلب قبولهُ فيها ريثما يتعود اعمالها. فقبلوهُ. ولما اتصل ذلك بابيهِ طابت لهُ نفسهُ وقرت عينهُ وجاءَ يسأَلني رأْيي في ذلك

فقلت لهُ: — ابنك اساءَ وانت جاريتهُ فيما أساءَ

قال: — ولم ذلك. والآن لا أخاف عليهِ الحاجة وما امامهُ الاَّ سلم الارتقاء يقطع درجاتهِ ولا يلبث ان يصبح من الوزراء او الامراء. ولنا اراضٍ كثيرة جم خصبها عزيز ماؤُها. غداً تفيض خيراتها عليهِ وعلى اخوتهِ

قلت: — هذا لا يركن اليه. ولبيت من ورق اللعب أحكم منهُ أُسَّاً وابقى على مر الحدثان. وقلت الثراء والجاه وكل شيء في ساعة يقضيها امام الاستاذ

قال: — ها انت موجود. علمهُ اللغة العربية وحفظهُ اخبار الأَوائل

وروّه الشعر وهذا يكفيهِ

قلت: — كيف تريد ان يتعلم العربية بعد هذا العمر وانا لا ادعي العلم بها وقد تجاوزت الستين !!! وهب انهُ فاق فيها الاوائل والاواخر أَيكون ذلك مغنياً لهُ عن سواهُ ؟ روض بالعلوم العصرية نفسهُ وذوّقهُ طعم الحضارة وملْ بهِ عن هذه العادات والنحل . فاصر الوالد على عناده وترك ولدهُ وشأنهُ . فكان يمشي في المدينة حاملاً مسدسهُ معوجاً طربوشهُ مشيراً بذراعيهِ

فلما نال العثمانيون الدستور وذهب زمان الاستبداد . قابل جماعة من رجال الامن ابن ذلك الصديق ليلاً وهو يتمايل سكراً فارادوا اخذهُ الى منزل ابيهِ . فاجابهم برميات من مسدسهِ جرحت احد اولئك الرجال وكادت تذهب بحياتهِ . فاخذ الى السجن قسراً ولم يرضَ ان يؤْخذ الى دار ابيهِ طوعاً وانطلق ابوهُ يرجو الناس ان يفكوا لهُ ابنهُ من وثاقهِ فلم يجد الرجاء . فلما استوفى مدتهُ خرج صاغراً ممتهناً . فتوعد اباهُ بالقتل ان لم يعطهِ ما يريد من المال وبقي ابوهُ في بيتهِ لا يوطأُ لهُ بساط ولا يقرع باب . ولقد رآهُ بعض الناس ذات يوم ماشياً على قدميهِ وفي يدهِ عريضة يطلب

فيها الى الحكومة ان تقيلهُ من بعض ما لها عليهِ من المال . فقال لهُ من التقى بهِ

— اين العربة يا سعادة الامير . كيف يخرج مثلك ماشياً في هذا الوحل تحت هذه الامطار

— العربة باعها ابني ورهن ضياعي وهرب وتركني لا ادري ايًّا عصفت بهِ الرياح

اكذوبة ابريل واكذوبة رمضان

تعود الغربيون ان يكذب بعضهم على بعض في اليوم الاول من شهر ابريل وهو كذب ليس وراءه نفع ولا يختارونه خشية من شر وما يريدون بذلك الاَّ مداعبة ومزاحاً. على انني لا اعلم من توارثوا هذه العادة ولا كيف انتهت اليهم وبقيت الى زماننا الذي طوى عجائب القدماء واكثر حماقاتهم. هذه غرايات اقلع عنها اهل الوقار من الغربيين ولم يستمر على ضلالها غير فئة قليلة من العامة والاحداث

واني لأكاد اذهب في تعليل هذا الكذب مذهباً لا ادري اهو الحق ام ظنٌّ انا اظنهُ وحدي. اخال ان اهل الغرب لما علموا ان الكذب عيب من العيوب التي لا تواطن المروءة في قلب انفوا تعودهُ وحرموهُ في ايمانهم واذ كانت النفوس مفطورة على البسط بما هو محظور رأوا ان يجعلوا لهم يوماً يكذبون فيهِ لكي ينيلوا الانفس مشتهاها وعلى هذا جرى اهل النسك والعبادة في كل دين. فان الصائمين الذين عافوا ما يلذ في افواههم واستعاضوا عنها بلذات النفوس يغيرون عاداتهم ويبدلونها احياناً. فاذا كان وقت الافطار جاؤُوا بما لذ وطاب من مأكل ومشرب وزينوا موائدهم بانواع الفاكهة والنقل

اما رمضان فلهُ اكذوبة يتخذها اكثر المرزئين في ذمهم . فلقد يهون عليهم ان يكذبوا ولا يهون عليهم ان يقولوا نحن مفطرون . يملأُون بطونهم في بيوتهم ويخرجون الى الاسواق بايديهم المسابح من اجود المرجان والكهرباء (الكهرمان) ومن البلور ومن العود ومن العنبر يلوحون بها اذا اشاروا. ومنهم من ينتهرك اذا دانيتهُ وفي يدك سيكارة ويقول لك: اذا كنت لا تؤْمن فدع من يؤْمنون يعبدون ربهم ولا تكدر عليهم صفو العبادة. واذا ساوم احداً على شيءٍ يريد ان يشتريهُ منهُ علا صياحهُ وازرقَّ وجههُ وحملق بعينيهِ وجعل يقول لهُ هذا يوم صوم وأَنا رجل يجهدني الامساك عن القهوة والدخان فاذا زيَّن لك الشيطان ان تملأَ رأْسي بكثرة كلامك ضربت بك الارض وأَنزلت عليك المصائب

مالك يا اخا الزهد تزهق الارواح وتستنفد الصبر وما لنا نحن وزهدك . سواءٌ علينا طرت بهِ حتى جعلت اخمصيك على هامة زحل ام هويت بهِ الى حيث يهوي الكاذبون

في البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدة تسجن المفطر الى ان يأْتي اليوم الثالث من عيد الفطر. وكان اكثر المفطرين يدَّعون الصوم ويحسنون تقليد الصائمين حتى لقد بلغ

امر الكذب ان يضرب المفطر في بيته من يدخن بجانبه سيكارته.
وقد خرجت بها ذات يوم في رمضان وراء امر عرض اريد
قضاءه. فلما ركبت الترامواي رأيت جماعة من الاجانب على
رؤوسهم القبعات وبأفواههم سيكاراتهم والناس ينظرون اليهم شزراً
ولا يقدر احد منهم ان يخاطب اولئك الاجانب بكلمة تسوءه
وكانت علبة سيكاراتي معي. فنسيت ان اليوم من ايام رمضان.
فأخرجت سيكارة جعلتها في فمي واقمت انتظر ان يمدّ اليّ احد
الجالسين شيئاً اشعلها به فشت فيّ عيون الركب وجعل بعضهم
يغمز بعضاً مشيراً اليّ بلحظه. ففطنت لموضع خطائي وقلت اداويه لكم
ايها الكاذبون بالكذب. ثم وثبت من مكاني بغتة كمن تذكر شيئاً
كان نسيهُ وقلت: لعن الله الشيطان. كدت والله ادخن سيكاراتي
وأنقض صومي ونظرت الى رجل جالس على يميني وقلت مؤنباً له:
كذا يا اخي تراني اهم بما يفسد عليّ صومي ولا تنبهني الى ما كاد
يفرط مني عن غير عمد وأنت تعلم ان الدين يقضي علينا بالنصح لمن
سها وان لا يعرض الا عمن تولى. فابتسمت الثغور وسُري عن القوم

ولقد دعاني وأنا في بلاد الاناضول احد الولاة الذين تفتخر
بهم البلاد لافطر معهُ. فاجبت الدعوة فرحاً باستماع حديثه والجلوس

اليهِ · فدوى المدفع والمائدة كظهر السلحفاة مما عليها من الاطعمة والاواني · فقال قائل: ارى زهيراً قليل الاكل كأنَّ باضراسهِ فلولاً · فتبسمت وقلت: هذه الاضراس ارادها اخو ذبيان بقولهِ:

تورثن من ازمان يوم حليمة الى اليوم قد جربن كل التجارب

فلم يفهموا ما اردت · فشرحت لهم البيت وعرفتهم المراد ثم قلت: كان الاحسن ان اشير الى قولهِ

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب

ولكن ابيت ان تشاركوني في مجدي · فضحكوا · ثم قال لي الوالي: بالله عليك يا زهير الاَّ ما صدقتنا · أأنت صائم حقاً؟ قلت لا والله ولا صمت قبل اليوم في حياتي فكاد الوالي ينفطر ضحكاً · اما الحاضرون فبقوا واجمين كأن قد صبَّ على رؤُوسهم طست فيهِ عشرون اقة من البترول · فعلمت اني مغضبهم في ليلتي · فلما انتهينا من الطعام وخرجنا الى المكان المعد للتدخين دنا مني احد المعممين وهو رجل كالجرادة لهُ لحية كقائمة المزاد وعينان كزيتونتين · فنظر في وجهي ملياً ثم قال لي:

— لمَ لا تصوم؟

— لا ادري

— كيف لا تدري ؟

— ككل من لا يدري

فغلب الضحك على الرجل وتنحيت انا جانباً كي لا يطير في وجهي رشاش من فيهِ . فقال :

— مالك تنأى عني . اغول انا فتخافني ؟

— كلا . بل فمك رائحتهُ منتنة ولا اقدر ان اشمها .....

فوالله ما امهلني ان اتم كلامي بل ولّى عني غير ملتفت وراءه ُ

ثم قصصتُ على الوالي ما وقع لهُ معي . فقال لهُ الوالي :

— اياك ان تحرك عليك لسانهُ . اما انهُ لينتزع السهم ويصيب المقتل

ولقد جاءني رجل في رجاء حسبني محلاً لهُ وكنت اشرب قليلاً من الماء فنسي رجاءهُ وجعل يعنفني . فلم املك الغضب . فقلت لهُ : امن أجل هذا اتيت الساعة ايها الفضولي . اخرج والاّ رميت بك من أعلى السلم الى اسفلهِ . فخرج ثم عاد وهو يقول وعيناه مغرورقتان دموعاً : جئتك راجياً فلا تخيب وابيك رجائي . فسمعت رجاءهُ وصرفتهُ عني واعداً اياهُ خيراً

وكان اكثر اصحابي من مستخدمي الحكومة يعرّجون على داري يشربون فيها قهوتهم وسيكاراتهم حتى لقد قلت لهم يوماً : احمد الله

كثيراً . لقد جعلني صاحب قهوة الكاذبين . فنظروا اليَّ وقالوا : اتقِ الله

اما الآن فلا ادري كيف حال الشبان في الاستانة . فقد اعلنت نظارة الداخلية بوجوب المبالغة في حجاب السيدات المسلمات وتوعدت ذويهنَّ بالعقاب اذا بدا منهن ما يخالف هذا الامر . والخبر اليقين عن المفطرين هو في مطعم توقاتليان وبني في الاستانة . وفي مصر من الحرية الشخصية ما لا يضطر الى التواري عن الابصار والاختباء تحت الموائد ولكنَّ في الناس كثيرين يفعلون ذلك . ولولا اني شاركت بعض الاجانب في الكذب معهم في اول يوم من شهر افريل وذلك حين كنت ابن عشرين سنة . لجاريت اهل المسابح الى الكذب . غير اني جالس امام مكتبتي وعيناي شاخصتان الى الساعة وقد دوى مدفع الظهر الذي افطر عليهِ . فاكتفي من مقالتي بهذا القدر وموعدي مع القراء الجمعة الآتية ان شاء الله تعالى

ليلة القدر

عبادة الانسان للخالقِ عبادة الطالب للرازقِ
لولا عطاياهُ وجناتهُ ابوابهُ باتت بلا طارقِ
هل تعلم الحور وما خوطبت كم بيننا من ناسك عاشق
يسجد لله ليحظى بها نسك كذوب في هوى صادق
سيدتي انت تقدمتها والفضل للسابق لا اللاحق
إن ندخل الجنة يوماً معاً ندخل من الغيرة في مازق
هذا نعيم لست ترضينهُ في ثامر منهُ وفي وارق
وهذه الدنيا بنا برة لولا تكاليف عَلَى العاتقِ
يا أرق ناس لياهم كلهُ ما اطول الليل على الآرق
يرتقبون بارقاً فوقهم وكم بهذا الافق من بارق
ان الاماني تشوق الورى والنفس تنقاد مع الشائق
وطالب النعمة من منعم كطالب السقي من الوادق
والدهر لا يخرج عن نهجهِ سيان للراضي وللحانق
ويسمع الخالق من صامت ما يسمع الخالق من ناطقِ
انتبهوا يا قوم من نومكم الله لا ينظر من حالقِ

اذا جاء اليوم السابع والعشرون من شهر رمضان. تزاحم الناس على الجوامع . فاذا قضوا صلاتهم جلسوا الى حلقات يسمعون فيها الاذكار ويكررون التسبيح و يبتهلون بالدعوات. فاذا فرغوا من ذلك عادوا الى بيوتهم فصعدوا السطوح وفرشوا ارضها بالبسط والحصيرات وجلسوا يرتقبون ليلة القدر

— وما ادراك ما ليلة القدر ؟

— ليلة القدر . خير من الف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر . سلام هي حتى مطلع الفجر

يقولون ان ابواب السماء تفتح ثلاث مرات متتابعات . في ساعة من ساعات ذلك الليل . لا يعرفها احد ولا ينتبه لها الاَّ من اراد الله لهُ الخير . وتكون كل فتحة كالبارق اذا ومض . فينبغي على العاقل ان يدعو بما قل لفظهُ وكثر معناهُ . وان يجعل دعاءهُ ثلاث جمل متتابعة . فيقول عند الوميض الاول : اللهم هبني مالاً لا يعدّ . وعند الوميض الثاني : وكلمة لا تردّ . وعند الوميض الثالث : وادخلني الجنة بغير حساب

هذا لعمر الله التلغراف اللاسلكي الرباني يراسلهُ بهِ عبادهُ كل عام في ثلاث ثوان . ولقد روى لي راوية وعهدة الرواية عليهِ

ان عجوزاً رأت الوميض الاخير وقد خرق الفقر اطمارها حتى اصبحت كنسج الغرابيل . فغلبت عليها القناعة . فقالت في دعائها : اللهم سد خروقي كلها . فلما اصبحت رآها الناس وقد مسحت عيناها وسد فمهـا ومنخراها واذناها سداً محكماً فماتت محبوكة الاطراف طامسة الشكل . رحمة الله عليها

ورأى آخر ليلة القدر . وكان الشيب انبت بشعره ثغامهُ فقال اللهم اجعل بياضي سواداً . فما اصبح الآ وكلهُ سواد يسعى في أديم لو كان ليلة القدر لما تألق فيهِ بارقها

وكان رجل لا يرزق ذرية فقال : اللهم املأ بيتي صغاراً . فانتبه في الغد على صياح ملأ بيتهُ حتى ان ظن الحيطان تتصايح . فاذا هو بنحو الخمسين صبياً لا يزيد طول واحدهم على الشبر يجاذبون امرأتهُ ويتواثبون حول سريرهِ . هذا يقول ابي وذاك يصيح امي وكلما حاول مع امرأتهِ الهرب حالوا بينهما وبين الباب . فرأت المرأة ان تأتيهم بشيءٍ من اللبن في وعاءٍ كبير لتقسمهُ بينهم. فوثب بعضهم في الوعاء فغرق فيهِ . فعلا بكاء الآخرين . فلما ضاقت الحيل بالرجل وامرأتهِ رميا بأنفسهما من كوة تطل على الطريق وارسلا ساقيهما للريح فراراً

لما كنت صغيراً كنت اجلس الى بعض الشيوخ فيقصون عليّ هذه النوادر وانا اكاد اموت ضحكاً · ولقد قلت ذات يوم لرجل منهم : تعالى الله عما تقولون · أيكون الحكيم العادل · يعلم ما تخفي الصدور · ثم يفهم الدعاء كما يفهمهُ عبد الحميد · فضحك الرجل حتى سال لعابهُ على لحيتهِ

وكانت عندنا قهرمانة عجوز طبعت على الوشاية وسوء الخلق · فما ترى منا شيئاً مما يتلهى بهِ الشبان الاَّ وشت بنا الى ابي فينالني من تأنيبهِ وغضبهِ ما ينغص حياتي · فلما كانت ليلة القدر وكنت على موعد من رفاق لي لنقضي هزيعاً من الليل في انس رتبناه ورأيت تلك العجوز لا تفارق خطاي دفعت اليها تقويماً كان معي وقلت : هذا دعاء ليلة القدر · حسب المرء ان يجعلهُ عَلَى صدرهِ وان يجلس عَلَى السطوح رافعاً وجههُ الى السماء فلا يلبث ان يرى بارق القدر · فاخذت التقويم مني جذباً وسمعت في صدرها ضحكاً كقعقعة الطاحون . واقامت ترقب البارق واقمت اجتلي المسرة في صحبي

آه ما اكثر اختلافات الاهواء . لو علمت ان سيجاب دعائي لقلت :

يا رب « امح التعصب من القلوب · واجعل الناس اخوانًا · واحبس ألسنة الادعياء عن الشعر والبيان » · هذه ثلاثة اتمناها ولي من الحظ ما قدر فكان

تفتأُ هذه الاوهام تربى في اعشاشها فتدرج منها لتأوى الى عقول تخاذلت عن فتحها جنود العلم ويدوم هذا العصر في معجزاتهِ يبهر الابصار ولا يلامس البصائر. فكم من حكيم يأتيك بالالباب من حكمتهِ فتزوي عنهُ وجهك وتهبهُ اعراضاً ويجد المعمم ذو الاظافر الزرق واللحية المتفشة مؤادك أدنى الى غيهِ من فؤادهِ فيأتيك في شماتهِ يجرر فضول ردائه فيستطعمك ثم يمد اليك يدهُ لتقبلها

بلغني ان شيخاً من اهل الزهد صعد على احدى المنارات في ليلة القدر واخذ في الدعاء والتسبيح فغلب عليهِ النوم فنام · فرأى في منامهِ كأَن السماءَ انشقت عن نور ملأ الآفاق وبهر الانظار · فنزلت الملائك في اجنحتها الخضر ترفرف بها على رؤوس الناس · والناس ما بين ساجد وراكع ومبتهل فأخذ الشيخ في الدعاء فقال :

— اللهمَّ انزل عليَّ فتاة تكون حسرة العشاق وحرقة القلوب اذا دنت ملأَت العين نوراً واذا نأَت اودعت الفؤَاد كمداً · فما اتم دعاءَهُ الاَّ وهبطت عليهِ فتاة هي اجمل مما طلب . فمد اليها يمينهُ

ليعانقها ويضمها الى صدره . فما راعهُ الاَّ صوت كف رنَّ على صدغهِ الايمن جاوبهُ مثلهُ عَلَى الايسر فانتبه مذعوراً فاذا المؤَذن امامهُ يقول له:

- ايها الشيخ الصافع . أَلا تستحي ؟ انيت لأُؤَذن اذان الفجر فرأَيتك مضطجعاً فانحنيت لارى ما بك واذا بك تفتح ذراعيك لتضمني اليك وأَنا رجل لا يمزح مع مثلي . فخجل الرجل وايقن ان الله لا يستجيب لمثلهِ دعاء

المحتلون يخرجون من مصر

اتعبتني كتاباتي فوقف القلم في يميني مستعصياً · غلب عليهِ الاعياء وسئم طول المشي على رأسهِ · فقلت مالك ؟ أهكذا دأبك ؟ جولة ثم تضمحل !!! فاما وقد حرنت حرانك فلن تستعيد جولاتك او يكون لك شجو يدعوك فتجيب · ثم القيت بالاسود المعاند الى جانب دواتهِ وقلت: ليكن عطنك بحيث يكون حوضك · وتنحيت في حجرتي جانباً واضطجعت على متكاءٍ لي لا بذي سندس ولا استبرق ولكن مما يستلينهُ جنب الشاعر المملق · وهنالك غلبني النعاس ونمت نومة هي الى الموت اقرب منها الى الحياة

فرأيت فيما يرى النائم كأني اسير الى ميدان عابدين . فلما وافيت مدخل الميدان مما يلي الشارع الآخذ من ميدان الاوبرا اذا جموع من الجنود المحتلة تتقدمها موسيقاتها ويقودها قوادها مشاة وفرساناً . تخفق بينها الاعلام البريطانية التي اظلّت الامن والعدل بمصر في اكثر من ربع قرن . و باطراف الميدان جماعات من الرعاع والسوقة يتوسطها بعض تلامذة المدارس وآخرون جعلت اتعرف بعضهم كلما علق بهم نظري . فالتفت الى وسط الميدان فاذا العلم

البريطاني والى جانبهِ العلم العثماني يصل بينهما رباط اخضر اشارة الى الود والاتحاد وإلى امام العلمين منبر ذو درجات اعد ليخطب عليهِ من لا اعرفهُ

فما طال بي الوقوف الاَّ واقبلت عربة تقودها ست جياد يتقدمها فرسان ويتبعها آخرون بايديهم الرماح وعلى اسنتها الاعلام فنظرت الى العربة فاذا امير البلاد المعظم والى شمالهِ رئيس النظار وامامهُ احد النظار ٠ وتلاحقت بعربة الامير عربات كثيرة وسيارات عديدة فيها قناصل الدول وخلق لا يحصى لهم عدّ من سراة الاجانب ورجال الصحف الاوربية ٠ فوقفت عربة سمو الامير امام سلَّم الامارة وصعد أعزهُ الله وتبعهُ اكثر اولئك الاجانب ٠ ثم اقبلت عربة من جهة شارع قصر النيل يتقدمها اربعة فرسان ويتبعها مثلهم بايديهم السيوف مسلولة وعلى رؤُوسهم القبعات البيض واذا الراكب الجنرال ماكسويل قائد جيش الاحتلال فسارت عربتهُ حتى وقفت امام سلم الامير ٠ فصعد الجنرال

كل هذا يقع وانا لا ادري ما هو ٠ فحانت مني التفاتة فرأيت الى جانبي شيخاً دق حتى صار كالعمود الفقري لهُ رأس كرأس السنة ولحية كالتقويم وانف كالمسدس وعينان كانهما برقوقتان ٠ على رأسهِ

عمامة كالبصلة الكبيرة . فدنوت من الشيخ وحييتهُ فحياني بصوت كصوت البوق . فقلت يا استاذ ما هـذا الذي نراه ؟ فنظر اليَّ نظرة ملؤُها عجب وقال :

— افي سفر كنت ؟

— كلاَّ . وما تعجبك من سوءَال لست اول من يسأَلهُ

— الامر معلوم . المحتلون يخرجون الآن من مصر . وتمسي مصر مذ الساعة وهي للمصريين

فبقيت كمن يسمع رطانة لا يفهمها والشيخ محملق باصرتيهِ كانهُ يحسبني جننت . فقلت هوّن عليك انا مريض تعاودني الحمى اغباباً وانسلات من جانب الشيخ لانظر ما سيقع . فاذا سمو الامير نزل من قصر عابدين يماشيهِ قائد جيش الاحتلال ووراءَهُ نظارهُ الكرام . فساروا حتى بلغوا موضع العلمين . فصعد قائد الجيش المحتل على المنبر وخطب الحاضرين فقال :

« نحن الآن يتنازع قلوبنا عاملان . واحد للفرح وآخر للحزن . فاما عامل الفرح فبأَن اثمرت مساعينا لاصلاح مصر حتى لتستطيع ان تعيش وحدها . واما عامل الترح فبأَن سنودع وادي النيل وابناءَهُ بعد ان طاب لنا المقام واستحكمت في قلوبنا الالفة . الا

وان كل عارية يوماً ستسترد ّ . وما بعد المقام الاَّ الزماع . على ان لنا في موَدَّات هذه القلوب لذكرى نستعيد بها عذب ما فات . واني ومن اقود من جنود بريطانيا العظمى لنسلّم على امير مصر المعظم سلام وداع ونهدي مثلهُ لبني مصر المحبين . فليحيَ سلطان العثمانيين فليحيَ ملك بريطانيا فليحيَ امير مصر»

فما اتم القائد خطبتهُ الاَّ عزفت الموسيقى العسكرية بالالحان الملكية الثلاثة . ثم نزل وصافح امير البلاد وركب عربتهُ والى يساره ناظر النظار بالنيابة عن سمو الامير وسارت الجنود تؤُم المحطة . فرأيت ما لم أَرهُ وجعلت اتبع هذا الجمع الذي تلمع في جوانبهِ الاسنة وتخفق في خلال عثيرهِ الاعلام . وقلت الآن ننظر ما سيكون من امر الفائزين بهذا اليوم المحجّل الاغرّ

فاذا شرذمات من اهل الضوضاء وسكان الاعشاش . قد عصبوا روُّوسهم بمناديل حمر وبايديهم العصي . تتقدمهم عربات فيها رجل كالخيار التنبر لهُ شارب اسود يخالهُ على البعد رائيهِ غمد خنجر . على رأْسهِ طربوش اعوج والى جانبهِ آخر مثلهُ ولكنهُ منتفخ البطن كالبرنية وفي يدهِ شيءٌ يشير بهِ لم اتبينهُ جيداً واحسبهُ سوطاً . وامام العربة بين هؤُلاء الجموع رجل اسود الشار بين طويل

القامة معمم مكمم يحمل على كتفهِ مشعلةً مغطاةً (بكوفية) من كوفيات المحلة الكبرى وقد جمح ايما جماح . فكان ينظر يمنة و يسرة ويصيح بملء فيهِ قائلاً (ملحة في عين اللي ما يصلي على النبي) فتأملتهُ فاذا هو احد مشاهير الكتاب والخطباء عزيز القدر بين اشياعهِ . فتركتهُ وحبلهُ على غاربهِ وقلت انظر الى غيره . فسمعت احد من في العربة يقول لجماعة من الماشين :

— اذا ركب الجنود القطار وسار بهم حتى غاب عن الابصار . تذهبون من ساعتكم في جماعة من الشداد الى ادارة كذا فتهدمونها على من فيها ثم تفعلون ذلك بادارة كذا ثم استعلموا لنا عن هذا الخبيث الملعون الذي يسمي نفسهُ زهيراً فاجعلوا في عنقهِ حبلاً وجروهُ على وجههِ ثم القوا بهِ في النيل . فهممت ان اصيح بذلك المتكلم واقول لهُ غريمك قريب منك يسمع كلامك وها هو امامك ولكن امسك بذراعي رجل فالتفت فاذا هو صاحبنا (نقاد) وكأنهُ عرف ما اريد فقادني الى خارج تلك الجموع . فقلت اهلاً وسهلاً بالصديق . ما جاء بك الى هذا المزدحم ؟

— كنت ماراً في شغل لي فلما رأيتك اتيت لاخرج بك

فأخبرتهُ بما سمعت وقلت يخيل اليَّ ان هذا الرجل وصاحبيهِ

سيخطبون فهلم بنا نسمع رطاناتهم . فقال نقاد اما وعيد القوم فكما قال صاحبك احد الشعراء الغابرين

زعم الفرزدق ان سيقتل مربعاً ابشر بطول سلامة يا مربع

واما خطبهم فقد سئمناها ولا حاجة بنا الى سماعها حين تستعاد ولكني أُماشيك الى ميدان الاوبره على ان تعود معي . قلت لك عليَّ ذاك . فسرنا . فلما بلغنا الميدان اذا بتمثال البطل المغوار ابراهيم باشا وثب بجواده الى الارض ووقف امام الجنرال . ثم اشار بيده اشارة استوقفت تلك الجموع فاشرأبت الاعناق وجالت فيهِ الابصار. ثم غلبت سورتهُ على النفوس واستولت هيبتهُ على الافئدة وهو كما هو في تمثالهِ مشيراً بيُمناهُ وعيناهُ يتطاير منهما الشرر فقال بصوت يملأ الصدور :

« قفوا . قفوا . مثل هذا الجمع من اهل وطني قدتهُ حتى وطأت بلاداً لها عليَّ حق السمع والطاعة . ومصر كالسبية بين المتقاتلين . فلما اتيت بمهرها وقد خطبها لي عدل ابي ورددت دونها أكف المتطاولين واقمت لها طول مجرى النيل مهرجاناً من العز ما فاتهُ الاَّ عز ابناء الشمس وعهدي وهي في عزتها يكب لديها الجبابرة على اذقانهم وانتقلت الى طيب من اخلافي هب اناس يغالبون

الطيب · حتى صار ما صار وحمي الحمى بهذه البواتر ونامت الاعين في امن هاتهِ الاعلام وتريدون اليوم ان تخرجوا من مصر ليصبح عاليها سافلها وليجري هـذا النيل احمر قانياً . كلاًّ ثم كلاًّ . لأَصيحن صيحةً تخرق حجب الازل وتنفذ الى من ولجوا غابتهُ ولأَبعثن لكم من تحت المقابر اجساداً تسد دونكم طرق الرحيل . اما والهرمين والنيل ليدخلن اهل الطيش غداً على العذارى في خدورهنَّ وليأخذنَّ بغدائرهنَّ وليقومنَّ بعد زماعكم من الشر اضعاف ما اتى بمقامكم من الخير · ارجعوا الى ثكناتكم مأجورين غير مأزورين انما يأْنس اليكم اهل الوقار وانصار الفضل » فما بلغ هذا الموضع من خطبتهِ الاَّ بدأَت شؤُون عينهِ تخضل تلك اللحية التي طيبها العثير في مواقف الحفاظ . فقلت يا لك من يوم ما حسبتني اعيش اليهِ

وقد علا ضجيج في جوانب الجيش · فاذا اناس من علية القوم كشف الرؤُوس وبايديهم الرياحين يصيحون بتلك الجنود ان لا تزايل مساكنها · فالتفت ورائي لانظر ما فعل من كان في تلك العربة فلم ارَ شيئاً. فاعدت النظر الى التمثال فاذا هو مكانهُ وقد تفرقت تلك الجموع فانتبهت من منامي وقلت لا رجعت الى فراشي قبل ان اوافي قراءَ المقطم بقصتي

مقتل فرر

اغمدوا البيض يا ملوك البلاد ما تريدون من رقاب العباد
ان هذي الارواح ليست رعايا حسبكم اسر هذه الاجساد
كل تاج وان تعاظم قدراً دون كبد من احقر الاكباد
ومقام الملوك بين قصور كمقام الرفاة في الالحاد
حين يبكي اليتيم فقد ابيهِ اي فخر لهذه الابراد
كيف يحيي الملوك في مهرجان والرعايا لديهم في حداد
اخوة يشتكون ظلم اخيهم وكذا كان سالف الاجداد

* * *

يا قتيل العلياء يومك ابكى كل عين خلا عيون الاعادي
يتمنى الكريم لو صرت منهُ بدل القبر في صميم الفؤَاد
عشت حرًّا وليس يسعد حر طال عهد الاحرار بالاسعاد

هن ثلاث رصاصات رميت باسبانيا فجاوبت دويها بلاد الله في اوربا وآسيا وأَفريقا وأَمريقا · ثلاث رصاصات رمتها حكومة متمدينة بمشهد من حكومات متمدينة فقتلت رجلاً متمديناً · حر

اشقته حريته عارف اجهدته معرفته ومنصف اراده انصافه. ذهبت خمسون سنة في سبيل الخير لخال الشر دون استمرارها . فلا السماء انشقت ولا نجومها تناثرت ولا الارض مادت ولا اوتادها قلعت ولكن هاج بنو الانسان رحمة على ابن الانسان

لو قتل فرر قبل اليوم بعشرين سنة لما وجد عليه الناس هذا الوجد ولبقي الجزع في قلوب من عرف حقيقته من بني جنسه وقليل من غيرهم ولكن فرر آثر حب النوع على حب الجنس فكان اكثر الناس احبة واكثرهم نعاة

ابى زعامة الفرد على الجمع وكره ان يرى اناساً يرفلون في ثيابهم المخملة يجررون اسيافهم وتخفق على رؤوسهم خرق فوق قضبان يسمونها اعلاماً وان تكثر حكومات الارض من جمع هؤلاء في ازيائهم المضحكة لتقتل بهم امثالهم . انف ان يرى اخوته ابناء آدم يتنازعون اكنافاً من الارض ليست لهم ولا لغيرهم ولكنها لكل الناس . سئم ان تشاد البنايات الشامخة يفرغ عليها الذهب وتزدان بالباهر من الزخرف لتكون معابد يعبد فيها الله والله صاحبها من قبل ومن بعد

فما يجزع على فرر سكان القصور العالية ولا المدخرون للذهب

والفضة ولا سراة الاقوام ولا الوزراء ولا كبار الموظفين وانما يئن
عليهِ المنفيون الى اقاصي سبيريا حين يعض الحديد على سواعدهم
والمقيمون في ظلمات السجون في سائر اقطار الارض بل يبكي عليهِ
من ذاقوا مرارة الظلم والاستبداد في اسر المستبدين من الناس .

الارمني الذي قتل اقربوهُ في مذابح الاناطولي والتركي الذي
القي ذووهُ في لجج البوسفور والعامل في اعماق الموانئ محروماً من
نور الشمس ولطف الهواء والفقير الذي يحس بالفاقة ولا يتجاسر على
شكايتها . كل يندب فرر كما كان فرر يندبهم

مساكين انصار الاحرار . يريدون ان يخلصوا العباد من الظلم
فيقعون هم تحت الظلم . اذا تعلموا فبعلمهم ينفعون الناس وان اثروا
فعلى المتربين ينفقون من ذلك الثراء . يتوجعون لاوجاع غيرهم و يرثون
لشكاياتهم ولو شاؤا لعاشوا سعداء متمولين يمسون في نعمة و يغدون
في اخرى . يودون لو تساوى الناس في الحظ على قدر المستطاع
وهم بعد ذلك يؤتى بهم الى اماكن القصاص فيقتلون تقتيلا

عجباً يسرح بازمير جاقيرجه لي وهو لص سارق قاتل معتد اثيم
تطلبهُ الحكومة بين الجذوع والصخور وفي الوديان وعلى الآكام وقد
قتل اربعمائة نفس ونهب اكثر من اربعمائة الف جنيه وأضرم المعامل

والقرى وامكن شهواتهِ من الارواح والاموال فيخلص واذا هو وقع غداً في اسر القانون حوكم وجيء لهُ بحجام ينكر على المحكمة آثامهُ وجناياتهِ واذا جرح ضمدت جراحاتهُ ليشفى ويسأل بعد شفائهِ عما جنت يداهُ ومثل فرر الذي اسس المدارس وافاض الخير على بني الانسان واحيا ميتة الآمال يحاكم سرًّا ويقتل جهراً ولا تجدي في نجاتهِ شفاعة الشفعاء

يرجع البطل المغوار من احدى غاراتهِ يجرر وراءهُ الاسرى في الاغلال والاصفاد وجنودهُ يدفنون القتلى على ذرى الهضاب وكثيراً ما يبقونها في مستراد الضواري ومهبط القشاعم فيدخل على رجل يتألق التاج على مفرقهِ ويهتز السرير بكبريائهِ فيقول: قتلنا كذا ونهبنا كذا واحرقنا كذا فتفتر لهُ نواجذهُ فرحاً ويتهلل وجههُ سروراً وتغدق عطاياهُ على القاتل الناهب المحرق ويقام لهُ تمثال تخطب امامهُ الخطب وتنشد القصائد وتقام الافراح

النفوس التي تأوي الى هذه الجنوب تستطيب السيئات وتستكره الحسنات · ما انقى سريرة الوليد الى حين يدرج من عش صباهُ · تبسامة تستضحكهُ وزجرة تستبكيه · فمثلهُ كمثل البلبل اذا جاء الربيع واورقت الاشجار وصوَّحت الازهار ومجت سحرة

لعاب الندى وانسابت على اعطاف اماليدها خيوط الشعاع واستمر الغدير في خريرهِ والنسيم في هينمتهِ داخلهُ الطرب فصفر في مهرجان الطبيعة ليطرب نواميسها واذا كان الشتاء وذبلت الغصون وذوت الاوراق واكفهر وجه الافق انكمش البلبل في عشهِ واقام في بثهِ

الى الله اشكو مرّ ما يتجرعهُ الانسان من الانسان · ملك كريم يصبح شيطاناً رجيماً · وما الملك بذاك الذي يتوهمونهُ اخضر الجناح بادي الشباب ريضهُ ولا الشيطان ذلك الذي يتخيلونهُ مشتعل الناظرتين دامي اللهاة والمناسر كلاهما خيال لا وجود لهُ بحيث يظنون ان هما الاَّ بين الناس ومن الناس

اذهب يا فرر الى حيث مصير العناصر ومآتاها . تلقَ سكوناً لا تشوبهُ حركات الغوايات . رقدة هذه كلنا راقدها غداً . فاذا لاقيناك صافحناك وشكرناك واذا طال الثواء في مواطن الشقاء فسيأتيك منا السلام كل صباح ومساء

العمال في البلاد العثمانية

أخ جاء يدعوني الى نصر اخوة ... وهـذا يراع سامع ومجيبُ

فقلت لهُ لا تسلم النفس للأسى ... اذا ساءَ عيش انهُ سيطيب

وهذي الليالي لا يقر قرارها ... فمن لم يصبهُ الخير سوف يصيب

لنا اكبد لا تخمد النار تحتها ... ولا هي من حر اللهيب تذوب

أظن لنا في ذمة الدهر طية ... وادرا كهـا للآملين قريب

قضى زعماء السوء فينا بما قضوا ... لهم دوننا في الطيبات نصيب

نخال جديدات الامور عجيبة ... وما تحت فسطاط السماء عجيب

أَيها الاخ العامل

لبيك الفاً . هذا يمين الاخاء امدهُ اليك . فان كنت خاطب ود فالود لك وان كنت شاكي ظلم فيراعي اسانك وبياني ترجمانك وانا وحياتي دريئة لك من المخاوف . لعمري لقد استنجدت بواهن القوى منعقد اللسان أسير العجز حليف الجهل . فاذا كان يغنيك شيء من هذه الخلات فبالصدق الذي لا ادخر سواهُ وبالفؤاد الذي لم تستأسرهُ بغية وان عزت ولم يفزعهُ هول وان جل

ما كنت غافلا عما قضى فريد ولا جاهلاً ماذا اراد فريد · انا اعرف فريداً وهو يعرفني · يرفع رأْسهُ ويمد من صوتهِ ويضرب الارض برجلهِ في مجلس الامة ولكن اذا بدا لهُ زهير في جسمهِ الناحل ووجههِ الممتقع أُرتج عليهِ واضطرب المنبر تحت قدميهِ · قل لهُ ملكت فاسجح . لقد ولى ثم تولى · فلا زمان الجاهلية اغناهُ ولا زمان البعثة . وكم في زعمائنا من المخضرمين · ستنزل من تحتهم صهواتهم وتعثر في مضمارها جيادهم · ايهٍ لك هذا الدهر ابو العجائب · يفتن ثم يطغي ثم ينكي · ما ادراهُ بسنة التدرك . اكأَنهُ ينظر الينا من تحتنا فيدعونا اليهِ

ادخل حجرة الوزير تلقَ بها الاواني المذهبة في نقوشها وتصاويرها على الخوان البديع من شجر الجوز مطعماً بالفضة او الصدف او العاج والى جانب ذينك من التحف والبدائع ما لا يصورهُ الاَّ بنان صانعهِ وهو مضطجع على سرير اقل مسمار فيهِ اغلى من مالكهِ ثمناً وانفس قدراً . جذلان ثمل بين ابهة الدولة وسكرة العز وكبرياء الثروة · اذا مشى على ذلك البساط السندسي قلت فيل يمشي على هشيم · يشير لك بيمناهُ ويسراهُ الى تلك المذخورات فخوراً منتفخاً لانهُ امتلكها بدراهم غلبت والحاجة على نفس صانعها

فاقتناها ولم يشأ ان يكون عند سواهُ نظير لها . هذا رجل قرأ على احد تلامذة شيخ الحارة وتخرج اما في جامع الفاتح او في احد اقلام الباب العالي. ثم تنقل من تقبيل اذيال الى تقبيل ايدٍ الى ان قبلت يمينه . فأين رأى هذا عاملاً . اما انهُ تنتظر عيناه ولا تريان

السرير الذي يهدأ عليهِ جنباهُ اذا غشيهُ الكرى والكرسي الذي يجلس فوقهُ ليتولى احكام الناس والمنظار الذهبي الذي يعضُ مارن انفهِ ويريهِ كل كلمة كالدارعة والملابس الحريرية التي تخفي عن الابصار حدبتهُ وما خرج من ركبتيهِ كلٌّ يسرهُ وكلٌّ يرضيهِ أما عاملهُ فقد نال اجرهُ وقضي الامر

هو يحسب ان العامل يدور كالدولب لا يجهده تعب ولا يضنيهِ كد . ولو رآه في معملهِ متفصداً جبينهُ عرقاً مشمراً عن ساعدين مفتولين عزماً متهللاً فرحاً في حزنهِ شادياً في مناحة حظهِ لاخذه الروع ولخارت تلقاء ذلك المشهد المهيب قواهُ

ان بين الحيطان السود تحت سحب الدخان امام النار التي يذكيها الكير الزافر وتحت اعماق من الارض ذرعها تلث مئة ذراع او اكثر لرجالاً شعث النواصي غبر الوجوه نبا عن اجسادهم النعيم واجفلت عنهم السعادة يخدمون بني الانسان كأن

لم يكونوا من بني الانسان. اذا جاء عيد سرهم منهُ قطعة لحم يأكلونها مع اطفالهم وجرعة من خمر يشربونها معهم . تقام الافراح وتزين البلدان و يزدلف الناس الى الناس تفرجاً وتنزهاً وهم في ظلماتهم غارقون وقد ينفجر غاز فيتطايرون في اثناء لهيبهِ و يدهم سيل فيغيبون في جائشات غواربهِ وليس لاهلهم من حامٍ ولا لبنيهم من آوٍ فيكفيهم حسرات الفراق ولوعات الهموم

يمرّ الامير الجليل في عربتهِ وهي كدارة الشمس تقودها المطهمات مسابقات الرياح فيلفت ابو الذهب وجههُ عن اخيهِ المسكين الفقير البائس المجد المجتهد . يرى اطمارهُ الرثة ووجههُ الشاحب فيعاتب الله كيف خلق خلقاً مثل هؤلاء الناس ولو انصف لبادر اليهِ من علياء مركبتهِ واوسعهُ لثماً وتقبيلاً ولاخذهُ وأركبهُ على يمينهِ فما يتلطف بآثم ولا بسائلٍ بل بسيدهِ الذي يطعمهُ و يكسوهُ و يسقيهِ و يقيهِ

ان فريداً ليس بنبي وقرارهُ ليس شرعاً وكما ذهب المؤثر يذهب الاثر . صنيعة عبد الحميد لا يسلك الاّ صراط عبد الحميد وكم في هذه الناشئة من ترى حب الوطن يستطيرهُ . وحب بنيهِ يتقد بين اضالعهِ ومن اراد ان يجور على العمال فليستغنِ عن العمال

ليقل هؤلاء الكبراء والاوسمة تشرق على صدورهم والاثواب المخملة تكاد تلتهب على اجسادهم . نجوم افق الدولة ودرر عقدها المنظوم : « انا في غنية عن العمال واذا نزعنا عنا هذه الحلل الباهرة ملنا الى المعامل وشمرنا عن سواعدنا فصنعنا لانفسنا وليصنع العمال لانفسهم هنالك يعلم كلٌّ عملهُ ويقتصر كلٌّ على هواه . أَما الكلام على الكراسي المصفوفة بين السجف المرفوعة فذاك تستطيره الليالي هباءً

يا نواب الامة . يا أَخلاق الامة ماذا تريدون بالامة؟ هنيئًا لكم من الجاه والحسب والذكر ما نلتم بلى هذه الالسن تزيدكم منها بقدر ما تطلبون . ولكن انظروا الى حاجة البلاد فانيلوها حاجتها ولا تذهبوا هذه القصور بالذهب الوهاج وتنطقوا بين حجراتها بما يخجلكم غداً

العمال ينتظرون ورجال القلم من اخوانهم ينتظرون . فاذا جرتم عن مهيع الرشاد قلنا وفعلوا وصحنا وفزعوا ونحن لكم ابقى وانتم في حاجة الينا

ان كان هذا يكفيك ايها الاخ العامل العثماني فالحمد لله على خدمتك وخدمة اخواني

الغلو في المدح ـ التذلل ـ الذي ينقصنا اكثر من الذي عندنا

غاظني صديقي (نقاد) ولكن لا آخذهُ الله بجريرتهِ . سبقني الى هذا الموضوع فأجاد وأفاد. ولو كان يدري ان اخاهُ زهيراً ورم انفهُ في اعدادهِ لتخطاهُ الى غيرهِ . على انني لست مكرراً ما سبقني اليهِ . فليطب قراء المقطم نفساً . بلى ربما جئتهم من تجاربي باشياء تعظهم كما تفكههم

نحن الآن في عصر دستوري . والدستور رأْسهُ التساوي وركنهُ الحرية . ومتى تساوى الاحرار بطلت عادة التراجح في الحقوق وبقيت عادة التراجح في الاعمال . هذه قضية لا تنقض . وكل من حاول ان يقيم الدليل على بطلان حكم بديهي لم يزد على ان يضحك الناس من عقله

اما عصر الاستبداد الذي دالت دولتهُ فعصر لا يقاس بغيرهِ . كان الجوبة في كل شيء من اشيائهِ. خذ عقل احد السوقة وتدرج في مراتب العقول الى ان تنتهي الى عرش الملك فلن تجد فرقاً في

الادراك. وكثيراً ما فضل السوقة اخوانهم الملوك. وان رجلاً يشمخ بانفهِ لمخمل يلبسهُ ساعتين ثم ينزعهُ ليبقى في صندوقهِ طول ايام سنتهِ لمرزاة في عقلهِ مظلوم من الطبيعة في حصتهِ من الادراك. واذا كان فضل المرء بملبوسهِ فان في الحيوانات والطيور ما لا يسمو الى جمالهِ ملك من الملوك. اي قائد من قواد الجيوش في ثيابهِ الذهبية وسيفهِ المرصع ووساماتهِ المتلألئة يضارع الديك الهندي في جمال عرفهِ وبهاء ريشهِ واختياله في مشيتهِ بل اية ماكة تشبه الطاووس الّا اذا شبهها بهِ المتشبب في بعض اشعارهِ ؟

وبعد فلا حجة لاهل القدم على اهل الجدة في طلب التمسك بالعادات والنحل اذا كانت تلك العادات والنحل مثالب لاهلها

كانت جرائد الاستانة اذا مدحت « سلطان البرين وخاقان البحرين » قالت : تنبت الارض ببركتهِ وتمطر السماء بجودهِ . وقالت احدى الجرائد سامحها الله : إنهُ المقصود بخطاب لولاك لولاك لما خلقت الافلاك . وكانت تشبه عربتهُ بالفلك . وما زادهُ ذلك الّا غروراً وما زادنا الّا ويلاً . ولقد بلغ الغلو بالقوم ان صاروا يكتبون ما لا معنى لهُ . حتى سألني احد فضلاء الفرنسويين ان اترجم لهُ جملة منها ليكتبها في مؤلف لهُ فلم استطع

وكذلك اعتاد الناس التذلل . فاذا قال احدهم الكبير من الكبراء جئتك او زرتك عد ذلك من الذنوب التي لا يتناولها الغفران وانما ينبغي ان يقول جئت لامرغ وجهي عَلى تراب قدميك . ويقول بعضهم لبعض . كانت جاريتك امرأتي وقال عبدك ابي وجاء مملوكك ولدي . ومثل هذا كثير لم يخطر على بال القائمين « بتصفية اللسان العثماني » ان يزيلوهُ من اللسان والى هذا اشار ابو الادباء الاتراك وفخرهم المرحوم نامق كمال بك الشهير في قصيدة لهُ فقال:

خاكه يوز سورمكله قائمسه براوستنده حيات

اختيار ايت التني خاكك حياتك رغمنه

ومعناهُ اذا كانت الحياة قائمة على الارض بتمريغ الوجه على التراب فاختر ان تقيم تحت التراب وأَنف الحياة راغم . ولكن نامق كمال كان عندليب ربيع مضى ومضى هو معهُ وقد اطربتنا اقوالهُ ولكننا قصرنا في اتباع رأْيهِ

فاذا قيل لهؤلاء المتمسكين بالعادات السخيفة . ما يحببكم من هذه الاباطيل . قالوا هذه عاداتنا القديمة لا يجمل بنا النزوع عنها . والامم الغربية وهي سابقتنا الى الحضارة لا تزال محتفظة على قديمها

فكيف نغير نحن ما عاش عليهِ الاجداد وماتوا ؟ وقد فاتهم ان الخطأَ لا يقاس عليهِ . وان من حقنا ان نقلد اهل الغرب في الحسن دون القبيح . ولقد كان العرب في الجاهلية يئدون بناتهم انفة ولكن هذه العادة ابطلها الاسلام . ولا يليق بنا ان نجعل العصور كما يوافق عاداتنا فذلك ما لا نستطيعهُ والاقرب ان نجعل العادات كما يوافق العصر

وقد رأَيت في جرائد الاستانة اشياء وددت لو تنزهت عنها . فهي لا تزال تغني السلطان الدستوري غناء السلطان المستبد . وتقول ان اوراق كذا واللائحة الفلانية عرضت على الاعتاب . وسلطاننا الدستوري لا يرضى بذلك . فان عدَّ هذا ثناء فليس هذا بثناء على شخص السلطان بل على اعتابهِ . ونحن ممن يحبون السلطان ولا شأْن لنا مع اعتابهِ ولا نعرفها الاَّ اذا قضى الله لنا ان نراهُ فنتخطاها كما يتخطاها الناس . واوراق الدولة العثمانية لا تعرض على اعتاب السلطان بل تسلم الى يدهِ الشريفة مع التعظيم

الحمد لله كثيراً . لنا مجلس امة ولنا دستور ناوي الى عدلهِ ولنا جرائد تكتب ببعض الحرية ولكن ينقصنا كثير . ينقصنا علم لا تغلب عليهِ صور الاشياء دون حقائقها وأُناس يقولون الحق ولا

يخافون عليهِ عقاباً و ينقصنا انصاف يدعنا نرضى بالحق وان صغر مصدرهُ ونأبى الباطل وان عظم موردهُ وينقصنا صبر من عندهُ ضمير حر على ان يرى قادة الافكار يتكلمون بكلام الصبيان وينقصنا اقلام من الفولاذ وأنامل لا تكل ونفوس لا تمل لنحارب الجهل حتى نجليهُ عن موطن العلم

فلن يسر العثماني ان يقول فيهِ الغربيون ما يقولون في الامم المتوحشة وان تجعلهُ الولايات المتحدة بمنزلة الاسيويين من سكان الجبال وأهل الوبر ودون الزنوج . وقد كنت اريد ان ارسل للقلم عنانهُ وأزيد اشياء ولكن سبقني اليها صديقي « نقاد » ومن جعلهُ الله بين اهل الفضل الذين تأتيهم شياطينهم بمخبآت الضمائر يبقى لهُ من شوارد المعاني ما لم يرضهُ السابقون

جراغان في امسها وفي يومها

اسجن مراد لو تكلم منزل | لأَخبرتنا عما جرى لمرادِ
ثلاثون عاماً قد توالتهُ عانياً | بربعك في بثٍ وطول سهادٍ
يطالع من خلف الستائر ملكهُ | يخاطبهُ شوقاً لهُ وينادي
بلادي بلادي ان يحل بيننا النوى | فعندك روحي دائماً وفؤادي
لقد مات مجنياً عليهِ وما جنى | ولكن لاحرار الملوك اعاد

بعد ايام مراد وقد مضت في لوعاتهِ وشجونهِ . بين الستائر المسدولة والكوى المغلقة والجنود المحاصرة والارصاد الذاكية وتحت خطوب يلديز الفادحة تتجلى (جراغان) في شبابها الريض وحسنها الانيق لأَعين ثلاثين مليوناً من عباد الله. وهي انما تتجلى سافرة غير محجبة مباحة غير ممنوعة مفتحة الابواب آهلة الكواكب يقصدها الامير وغير الامير يقف تحت سقفها المرفوع صاحب التاج وصاحب الشملة المرقوعة وجهاً لوجه ان لم يقفا جنباً لجنب

الجدران التي سمعت تأَوه السلطان المظلوم ثلاثين سنة ورأَت جسمهُ يذوب كل يوم كما يذوب الجليد تسمع اليوم خطبا

الامة على منبر النيابة وترى السلطان الدستوري في اقبال دولتهِ وأيام نعمتهِ

رب متكإٍ كان يغيب فيهِ مرفق الملك الاسير وبين يديهِ ابناؤهُ وبناتهُ كنجوم الافق في ظلمات الليالي يتراوحون امامهُ مكتئبين يسألونهُ عن الشمس كيف لونها وكيف ضحاها وعن الرياض وما يتخيلون من شجرها وزهرها وحياضها وجداولها وبلابلها وأغاريدها وطلها وغيثها وحصبائها وزرعها وهو يجيب بفمهِ ويبكي بفؤادهِ . وربَّ مكتبة عليها دواة جف حبرها ولا ورق فيملا ولا قلم فيكتب كان اسير الظلم يجلس امامها ويؤتى بالغصون اليابسة فيبريها بسكين الطعام فيكتب بحبر يصطنعهُ هو على قطع من الخشب او الخرق ما يعلم بهِ بنيهِ الكتابة والقراءة . لا اثر اليوم من تلك الشهود الصامتة بدلت منها جراغان غيرها وباتت مبيت العروس ليلة زفافها

الآن يستضحكون جراغان وتريد هي ان تضحك ولكنها لا تعرف غير البكاء . فقد تعودتهُ ثلاثين حجة . اليوم يقيمون الافراح بين تلك الحجرات وتود الحجرات ان تفرح لفرح الامة الاَّ انها لا تدري كيف تفرح فقد استطابت الحزن فلا تقدر الاَّ على الحزن

اما لو قسم الله لي ان ازورك ايها القصر لوجمت امام بابك خشوعاً فان الذي قضى بين احنائك ملك شهيد فاذا لم تأخذني هيبة الملك غلبني موقف الشهادة

اهلاً بنواب الامة . احق مكان بكم هذا المكان . فان كانت الارواح كما يقولون خالدة فكم من روح ترف على رؤوسكم . مراد ومصطفى فاضل ومدحت وكمال وغير هؤلاء من ضيوف الآخرة بينكم اليوم يسمعون ويعون . بكوا العام الماضي وذاقوا من الحزن ما لا تحس بهِ الاَّ الارواح . فهل انتم مانحوهم عامكم هذا ما منحتموهم عامكم الزائل . ام انتم قائمون فقائلون : اوفدنا اخواننا لنحمي اخواننا . فلا نريد الاَّ ما ينفعهم ولا نرضى بغير ما يرضيهم

هل ايقنتم اليوم ان جدالكم في الساعة الشرقية والغربية والسنة الشمسية والقمرية اضحك منكم الناس ام تودون ان تتجادلوا بعد ذا في الملابس والمآكل والمشارب وكيف ينبغي ان يمشي الرجل وكيف يليق بالمرء ان ينام في بيتهِ

ايها الرئيس المنتخب ارجو ان لا تحمرَّ وجوه منتخبيك . فقد حلبت الدهر اشطرهُ وعشت ببلاد التمدين ورتعت في مسارحها جادًّا مجتهداً حرًّا ومنتصراً للحرية . ولقد وضعت الحرب اوزارها

وأفضى اليك شيعتك بحاجاتهم · ثم انت تعرف موضع آمالهم · فكن كيف شئت ولكن خصلة واحدة يحاسبك عليها الشعب: ان تقول خلاف ما تعلم

لست نائباً والحمد لله ولن اكون باذن الله ولكني كاتب امة لها الوف غيري كلهم خير مني فما انا مرشد ولا معلم · بل انا منبه ورقيب · ورقيب في عهد الحرية غير رقيب في عهد الاستبداد · اذا بدا لي ما يسوء ابناء وطني فلا ود ولا جاه ولا مال يمانع لي قلماً ان يصر صريره · وما ينقش على الورق ينقش على لوح الابد · ذاك هو اللوح المحفوظ · فمن كان يتقي مأثور القول فليسلك طريقة الحق ومن قال : لا ابالي بما يكتب الكاتبون فقد استراح حيث تعب الكرام

رأينا اناساً في العهد السالف كانوا اولي الكلمة المسموعة والاشارة المطاعة ثم رأيناهم في العهد الحاضر اولي المقام المرفوع والجانب المحمي · ولا بأس في ذلك · اولئك المخضرمون وقد كان مثلهم مخضرمون غير اننا لا نعفوا عن هفوة تردي الامة وتميل عماد الملك · والعدل والعفو لا يتفقان · فمن عثر جاهلاً اقال الله عثرته · ومن وقع متوقعاً اسف الله فمهُ التراب

انزلوا هذه المطايا الخشبية فكم زل عنها غلام خفَّ وشيخ موقر . واطلقوا اقلام كتابكم فقد طال عليها عهد الحبس . وقولوا للناس سيروا في مناكبها وكلوا من رزقها لسنا عليكم بمسيطرين . ودعوا صدور المكربين تتنفس عن بثها . فان خفتم ان يسوءكم بيانها فان كتمانها عليكم لاسوأ . القلوب تحس وتريد والعيون تنظر وترى والعقول تدرك وتعي وكل يوم مثل سالفهِ يتقلب ويتغير فمن جعلكم على هذه المقاعد قادر ان يجعل عليها غيركم ولئن استطعتم ان تسكتوا من عندكم فلن تسكتوا من ليس عندكم . وما يكتب يقرأ وما يقرأ يفهم وما يفهم يرضي اذا كان حقاً ويغضب اذا كان باطلاً . ولا يخفف حسرات جراغان ما لبستهُ جراغان من ثوب جديد

سلامٌ عليكم هذه تحية الآيبين من بين اهلهم وعشيرتهم ليفضوا الى الحكومة بحاجات الامة . وحين يتقادم العهد ويطول المقام نكون عليكم اشد جرأة وأنفذ مقالاً واقوى حجة واكثر ناصراً وامضى عزيمة واصدق شهوداً

خليج البسفور في احدى ليالي الشتاء

في ليلة ليس بها كواكبُ   كأنما مشرقها مغربُ
يمسي سواداً كل ما بينها   ففوقها وتحتها غيهب
لا يدرك الفكر بها مطلباً   فكل ما يطلبهُ يهرب
جاؤوا بمظلوم الى ظالم   قالوا لهُ هذا هو المذنب
بكى وفي الدار بكوا مثلهُ   فكل من في داره ينحب
وقد رأينا حولهُ صبية   تندب حين امهم تندب
قال اجعلوهُ مثل اترابهِ   من كان من مذهبهِ يذهب
. . . .

. . . .

واقبل الصبح عَلَى ايم   وصبية ليس لديهم اب
يا بحر لو تنطق اخبرتنا   ما قال من غيبت اذ غيبوا

الظلم لهُ يد وليس لهُ فؤاد · يغمد خنجراً من خناجرهِ في قلب من قلوب الناس فلا يستشعر لذلك المـاً · القتيل مضرجاً بدمهِ لديهِ كالحي مضمخاً بطيبه · ظلمات الليالي وظلمات البحار وظلمات القبور · كل تستسرُّ في اثنائها بدور مطالعها الشباب

ومنازلها الآمال . واذا كان لاهل الويل تراث فاللواعج التي تذكيها الذكر والحسرات التي تستديمها الصروف . اجسام ما زهور الرياض ولا نيرات الآفاق ولا عقيان القلائد ولا جواهر التيجان باحسن منها منظراً . تربى متنقلة في الدلال من حنو مرضعة الى غناء مربية الى ابتسامة ام الى مواصلة حبيب كل ذلك لمصرع لحظة يتلوها الفناء . ما اضيع الامل وما اعدى القضاء

في ليلة من ليالي الشتاء سكنت تحتها الاشياء وتحركت الضمائر سوداء الجلباب بيضاء الصقيع . طرقوا باب المظلوم فاطل عليهم . قال:

— من الطارق المنتاب ؟ قالوا

— اجب . شفيق يدعوك

فقام إلى ثيابهِ فلبسها ومال الى اهلهِ فودعهم وتوسط رسل البين وزبانية جهنم فاركبوه عربة سارت حتى وقفت بهم امام باب كبير . فمشى الرسل ومشى بينهم المظلوم فادخل بهِ على من وجه في طلبهِ فتقدم خطوات وسلم تسليم غير المشتاق ووقف ينتظر الجواب . هذا الموقف مهيع من الحياة الى الموت . تعلل كل ثانية من ثوانيهِ نافع لمن نالهُ . رحمة الله على ابي تمام اذ يقول :

ها ان هذا موقف الجازع اقوى وسؤر الزمن الفاجع

الطالب والمطلوب متواجهان . خصمان هذا سيفهُ سلطان وذاك درعهُ اساهُ . فلما استطال السكوت واستبطأ الشرُّ اسيرهُ رفع شفيق رأسهُ ونظر الى غريمهِ نظرة ملؤها الختل ثم قال :

— الآن يذهبون بك الى (القصر) ولا ادري عم يسألونك هنالك . فكن رابط الجأش واحسن الجواب تاق خيراً

ثم امر شفيق اثنين من الشرطة ان يركبا المظلوم عربة وان يمضيا معهُ ففعلا . فلما اوفوا على الشاطئ ألفوا زورقاً فيهِ اناس بانتظارهم . فأُركبوا الزورق وانطلق حتى رسا بهم الى جانب سفينة كبيرة فصعدوا اليها . وجاؤا للمظلوم بكرسي فجلس عليهِ وناولوهُ سيكارة جعل يصعّد دخانها وهو صامت . ثم اقبل من البر زورق آخر فصعد منهُ جماعة منهم محمد علي رئيس الهيئة التحقيقية اذ ذاك . فدنا من المظلوم وقال لهُ :

— الآن صدرت الارادة السلطانية بالقائك في البوسفور . بذا قضى الله ولا مردَّ لقضائهِ . فان كانت لك وصاة توصي بها من بعدك فهاتها . وان كانت نفسك تشتهي شيئاً مما يؤْكل او يشرب فاقترح

قال — لا اريد شيئاً . وانسابت من مقلتي الرجل شآبيب

خضلت لحيتهُ والناظرون اليهِ لا يبكون • هم يعجبون ان يجزع الناس لفراق الدنيا • شهدوا مصارع كثير من الخلائق وشهدوا جزعهم عند الموت . فاستضحكهم ذلك وقالوا : ما لهؤلاء يخافون ما لا بدَّ منهُ • وما تعجيلهُ الاَّ تعجيل امر لا ريب فيهِ . يا حكماء الموت هذا عجب الخلي من حال الشجي ولعل لكم في ذمة الدهر مواقف مثل التي انتم لها شاهدون • سكت المظلوم سكتة غلبهُ عليها فؤادهُ • وفي ثنيات الافق كواكب تنظر ولا تسعف . والريح بايلة الجناح واليم جائش الغوارب والبران في بيوتهما المنيرة شاهدان ولكن لا ينطقان . الشعراء يبكون بابياتهم والمظلوم ينشد دموعهُ . اي قعيدة الشجون هذا الفراق

فرجي الخير وانتظري ايابي ... اذا ما القارظ العنزي آبا

لما جاؤوا بالسلاسل فامروها على عنق المسكين واثقلوا رجليهِ بقطع الحديد واهووا بهِ الى الماء فغاب في عبابهِ عرف هوان الحياة وكيف تجني الوالدات على ولدن والى اية غاية يكون المصير ....

قالت جرائد الاستانة الصادرة في ..

عثر رجال الشرطة على جسد رجل بشاطئ البحر قد تشوه وجههُ وتمزقت ملابسهُ واعضاؤهُ فلم يمكن ان يعرفوا من هو ولكنهم

رأوا في ملابسهِ خاتمهُ المنقوش عليهِ اسمهُ فاذا هو اللواء .... وظهر ان بعض اعدائهِ الخائنين انفردوا به يوماً فاغرقوهُ . وقد صدرت الارادة السلطانية بالجد في طلب الجانين الذين اعتدوا على مثل هذا الفقيد الغالي ! ! ! ووعد من يعثر عليهِ ان يعطى جائزة سنية ويزاد راتبهُ وترفع رتبتهُ

بين نوحات النائحات وبكاء الثاكلات سكوت يأتي بهِ الاعياء وتقطع الانفاس. ذلك من الفواصل التي ينوب فيها القلب عن العين فتسكت الظواهر وتبكي السرائر . وقد وقع مثل هذا في بيت الفقيد الغالي ! ! جاء رجل من القصر يحمل عطية . كلم الايم من وراء ستارها فقال :

— امير المؤمنين في حزن عظيم على المرحوم ! ! ! فقد كان يحبهُ كثيراً : ! ! ! وهو يقول اذا ذهب حاميكم فانا حاميكم . وهذه هديتهُ اليكم

فانطلقت الالسن بالدعاء من قلوب لا يشوبها الرياء ...

كانوا يخدعون الناس فيسرقون منهم الدعوات ويريدون ان يخدعوك يارب ليختلسوا منك الرحمة والرضوان

ماذا قال وماذا قالوا

(ولولا والٍ عثماني ما خططتها)

استخدم القلم ثم ملهُ · وافترقا بعد ذلك غير آسفين القى القلم وجانب المحابر وطوى الصحف وحاول مطلباً فنال · فلا سماء فروق اذا صحت ولا ماء الخليج اذا سكن ولا بنات ورق اذا دعت هديلاً ولا الازاهر اذا تنفست عن اريجها · لا يبعث وجده ولا يجدد صبوتهُ شيءٌ من تلك الاشياء · ما اكذب ما ترجع بهِ الابصار · الخلق لا يتطرقهُ تغير والحقائق ثابتة وليلى في يومها كليلى في امسها وانما تتغير مواقع البصر بتغير الحالات

مالك ! . . . إن اختلفت وجهتك وملت عن قصدك تبدلت في نظرك الاشياء ! ! ! الهضاب هي تلك الهضاب يكسوها اخضر النبات · يصوب عليها العارض المتهلل فتتفتح ثغور اقاحيها وتبتهل افواه شقائقها ثم يغدو عليها قيظ فاذا ما فوقها هشيم يابس ذوت ازهارهُ وعاد اخضرارهُ اصفراراً · اذا انقطع عنك الوحي في ليل الهواجس وجفت مكانك ملائكة الفكر بما كانت تأتي بهِ

من انوار المعاني استطبت انت ذلك التحول وتقول انك لست
باتحول هات الدليل . لعل لنا فيهِ مقنعاً

اهلاً بسيدي الوالي في موكبهِ الحافل وأعلامهِ الخافقة
وقدرهِ العالي وفضلهِ المأثور

زعموا انك مررت بهذه الديار فجست خلال ربوعها الآهلة
وكانت لك غدوات وروحات في مسارحها ومراودها فعبت عليها
حسنها ولا غرو . ابن الرومي الشاعر ذم قبلك الورد . وكرهت ان
ترى تماثيلها وقلت : (انها ظلال الحرص علَى الممالك) ولا بأس
فاكثر القدماء يقولون مثل مقالك . جعلك الله في حل مما قلت . ولعل
مولاي ممن يؤثرون البدو على اهل الحضر ويقولون ما قال شيخ المعرة:
والحسن يظهر في شيئين رونقهُ بيت من الشعر او بيت من الشعرِ

وقد اتانا انك نزلت هنا بقوم افضت اليهم بحديث لم يأمرك
بهِ آمر . هو رأي رأيتهُ . قلتهُ لرجل اخترتهُ فروي عنك ذلك
الحديث بسندهِ المتصل . فاستفز جماعة جبلوا على مضغ الكلام .
وهنا الرجال والنساء يمضغون المصطكاء . وقد ذكرت صحيفة من
صحفهم خطاباً انفذوهُ اليك وجاوبتهم عليهِ . وقرأت انا ذينك
الكتابين وقرأهما غيري

اذا صدق ظني فالكتاب مصطنع . انت اجل من ان تقول مثل هذا الكلام . نعم سبقت لك شطحات كنت اقرأُها وأضحك . اما مثل خطابك فلا اخالك ترضاهُ لنفسك

قال قائلهم انهُ من سليمان وانهُ بسم الله الرحمن الرحيم . قلت اعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهل هذا منطق الطير الذي علمهُ الله . ان هذا الاَّ افك مبين

اذا كنت تركت « تصوير الافكار » فما تركت الافكار والقوم لا بأس بما فيهم من طول ومن قصر . . . غير ان في الناس غيرهم يقرأُون ما تكتب. فماذا تراهم يقولون ؟ انت الآن في غرفتك امامك اوراق مما بقي من العهد القديم . فيها من العجائب والغرائب ما يستضحكك طوراً و يستبكيك طوراً ولا يأْتيك نبأُ مايقول الناس لبعد الشقة واختلال البريد . ولكن نحن نسمع والاغرب اننا نفهم . آه يا ليتنا لا نفهم . اذن لاسترحنا واستراح كثير معنا

يزعمون انك تبغض الانكليز . ابغضهم ما شئت واحببهم ما شئت . اسنا على فؤادك مسيطرين . ولكن الوالي العثماني يحب من تحب دولتهُ ودولتك تحب الانكليز والانكليز يحبونها

يزعمون انك تقول ان الهند ومصر شريكتان في الشقاء وانهما

يتململان من ظلم الانكليز · ولكنك تعرف ان في الظلم ضروباً لا يجارينا اليها الانكليز وان القوم نزلوا بمصر وعيوننا تراهم وان فضلهم على هذا القطر اعظم من فتح الشوارع واقامة التماثيل وان لهم عندنا معشر العثمانيين جميلاً لا ينساه من في فؤادهِ مثقال ذرة من المروءة. وربما كان في ابناء التاميز افراد لا يحبون العثمانيين فليكن في العثمانيين اناس يبغضون ابناء التاميز · غير ان والي البصرة يجب ان لا يكون الاَّ وفيَّاً عارفاً بمرامي الكلام ·

سيدي لو رأيتك على كرسي الحكم بين جندك وحشمك لقلت ما شاء الله ولعوذتك من عيون الحاسدين · غير انك حين تبدي من التواضع ما ليس من حقك يرن في اذنيك نداءٌ يستفزك فوق مقعدك الوثير فتسمع هاتفاً يقول ان العصا قرعت لذي الحلم

رأيتك آسفاً لما فاتك من زيارة قبر انت تجلهُ فتذكرت قول الشاعر

(فقال) اتبكي كل قبر اتيتهُ اقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له ان الشجا يبعث الشجا فدعني فهذا كلهُ قبر مالك

وكم من ملحودة زلج جوانبها قفر بلي رميمها ولم تبق حتى صفائحها وجنادلها · فرب شهيد حرية وسد في التراب قف بحيث تشاء

وسلم . على تلك الارمام يكن رجع صداك جوابها . فلا تحلن عُرى عزماتك صيحات لا تلبث ان تضيع . اعوذ بالله ان تحسب الشحم ورماً وان تكون على غير ما ترضى بهِ امتك

هذا خطابي وأَنا لا اصدق ما يعزى اليك ولا يصدقهُ غيري من عقلاء هذه الامة . فانظر ما انت مختار لنفسك . ولان صح ولن يصح ما زعموا . فان لي صوتاً يدركك في منعرجات الاحقاف و بين عاليات القصور . وأَقول يومئذ :

ومن لم يذد عن حوضهِ بسلاحهِ   يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

عفا الله عني ذنب هذه السطور ولولا وال عثماني ما خططتها . كلمات انتقيتها من بين اخواتها لاجعلها قلائد منظومة تتغنى بها العذارى في خدورهن . ولكن يضطر الحر ان يستهين بغوالي مذخوراتهِ صوناً لمجد وطنهِ

الاسراف الاسراف

امس ارهفت الشفار وشمر الجازرون عن سواعدهم وجيء بالاضاحي التي اسمنها مقتنوها وطلوا فراءها بالحناء وبالورس وفيها من موهوا بالذهب قرونها ودهنوا بالزعفران آذانها . فاكب اهل الصناعة عَلَى صناعتهم فمن مكبر ذابح ومن نافخ ضارب ومن سالخ جاذب ومن مقطع ناصب وعلى ابواب البيوت الاقيال وأبناء الاقيال من الساسانيين وقوفاً صفوفاً او جثياً قعوداً يراقبون من كل باب مصراعهُ وكأَن البدر سيطلع عليهم في موكبهِ السماوي او كأَن سينجاب غشاء الابصار فتبدوا من ورائهِ القسم

بت يوم الاربعاء بليل بطيء الكواكب ناصب الهم مسدود مسالك النسائم مقلقل مواضع النجوم وكأَن الهلال يكاد ينطفيء اذا نفخهُ نافخ وكأَن الثريا يكاد ينقطع مناطها اذا مد اليها كفهُ متناول فقلت في نفسي يالهُ من ليل ادعو الكرى فلا يجيبني الكرى وأُغمض عيني كرهاً فتنفتحان كرهاً . خفتت الاصوات وسكنت الحركات وهدأَت الجوانح ولانت المضاجع . اما لولا ان تولت غضارة الشباب وبطل سحر الجفون لقلت اني عاشق . فلما طال ما بي حتى امضني

جلست الى كوة لي تطل عَلَى ميدان عابدين وجعلت اتخيل اشباح المارة في اثناء الظلام

قلت: يا رب ما هذا الذي نحن فيهِ؟ اكثر السادة والسيدات مجتمعون الآن بقرافة الامام و باب الوزير وزين العابدين والعفيفي والمجاورين وغيرها · محتشدون حول مقابر علت مبانيها وحسنت (تراكيبها) ·عاليها انواع الثريات تبهر الانظار ·منثور فوقها الريحان والخوص · يفرقون التمر وغيرهُ من الفواكهِ (والشريك) على الفقراء · يتباكون ويتضاحكون · بين ايديهم الخدم يطوفون عليهم بما لذ وطاب من طعام وقهوة وعندهم المترنمون من الحفاظ يرتلون سورة يوسف حتى مطلع الفجر · هذا دأبهم في عيد الفطر وفي عيد الاضاحي كل عام · ثم يأتي الصباح فتجري دماء الاغنام كالانهار

لا ادري حكم الاضاحي فيما يرجع الى الدين فلا اتعرض لهُ بشيء مجانبة للشطط · ولكن ما هذا الاسراف؟ النا ثأر عند الغنم فنثأر ام الغنم كثيرة فنريد ان تقل؟ ما روى لنا احد المؤرخين ان جد الغنم نطح ابانا آدم فنجعل عداءنا محمولاً على هذا السبب

اذا قلنا ان مليونين من الاثني عشر مليونًا من اهل هذا القطر يذبح كل واحد منهم كبشاً ثمنهُ جنيه كان مجموع ما ينفق على

الاضاحي مليوني جنيه كل عام اي عشرين مليوناً كل عشرة اعوام وأربعين مليونًا كل عشرين عاماً • فاذا رضينا ان نحسب ما ينفق على القرافات مليونين ايضاً تضاعف مقدار ما ينفق فكان ثمانين مليوناً كل عشرين عاماً . هذا مبلغ لو يجاد بهِ في زينة البلد لباتت اعمدة مصابيح الغاز التي في طرقاتها من الفضة ولو بذل في تعليم الابناء لصاروا كالانبياء ولو بذر في الارض لنبتت السنابل ذهباً ولو انفق على الفقراء لاصبح السائلون يشترون ملابسهم من ربو و يفطرون على الشكولاتة ولا يتغذون الاَّ بألسنة البلابل مطبوخة في جفان من البلاتين

شاعر مصر حافظ ابراهيم لا يكسب كل شهر عشرة جنيهات وشاعر آخر ثانيهِ حاول الانتحار ولكن لم يجد سلاحاً يعجبهُ و كثير من الفضلاء يعيشون على الهواء وليس لهم في ثمانين مليوناً من الجنيهات نصيب

اما كان يرضى حافظ بأَن يكون لهُ مثل الراتب الذي يتقاضاهُ قائد جيش فيقول مفتخراً

اجل هذه اعلامهُ ومواكبهُ   هنيئًا لهم فليسحب الذيل ساحبهُ

ام كان يأبى الشاعر الآخران ينال كل شهر ما ينال مدير عام فيتمثل بقول ابن عمهِ في الغابرين

ان كنت عبداً فنفسي حرة كرماً . او اسود اللون اني ابيض الخلق

وبينا انا افكر في مثل هذهِ الامور اذا بدوي المدافع من القلعة يؤذن بحلول العيد السعيد . قلت كل عام والناس بخير . وتسابق بعد ذلك العامة الى الطرقات هذا يحمل فخذ كبش يهرول بها الى بيته . وذلك تحت ابطهِ جراب فيهِ ما جمع من القرافة واناس لبسوا ثيابهم الجديدة وعوجوا طرابيشهم وبأيديهم العصي المثقفة يلوحون بها يمنة ويسرة . فاذا تلاقى صديقان بادر كل الى صاحبهِ يعانقهُ وكانهُ يصارعهُ . واقد سقط الطربوش من رأس احد الناس وكان فرغ من معانقة صاحب لهُ فالتقطهُ وجعل يمسحهُ بمنديلهِ . فلما ولى ذلك قال صاحب الطربوش لرجل بجانبهِ : الله يطيّن عيشتهُ طيّن لي طربوشي

وما لبثت ان رأيت العربات والسيارات رائحة غادية فيها السراة وأبناء السراة في ثيابهم المخملة وعلى صدورهم الاوسمة ورجال الشرطة واقفون في وسط الطريق يحيون من يعرفون ومن لا يعرفون . فجعلت اتصفح وجوه القوم فاذا هي ضاحكة مستبشرة يتعالاها الوقار ويبدو على صفحاتها السرور . قلت ذُبحت الاضاحي وقسمت لحومها على متنازعيها ومتجاذبيها وظلم بنو آدم في يوم فرحهم مليوني روح في قطر واحد فما ظنك بغيره .

الاسترقاق في ايام الحرية

لو يعلم المهد ما يكونُ من بعدهِ ذخرهُ الثمينُ
لبات حرصاً بهِ ضنيناً وذو الغوالي بها ضنين
يظلُّ يهفو بهِ حنينٌ اذا شجا ربهُ حنين
يصر في ميلهِ صريراً كأَنهُ تحتهُ انين
يا حبذا الوجه حين يبدو من فوقهِ ذلك الجبين
حسن تشك العقول فيهِ وينتهي عندهُ اليقين

☆☆☆

لما تحلى بها صباها وجاولت عينها العيون
واقبلت تنثني دلالاً كما انثنت قبلها الغصون
اطاعها الحب في البرايا فكيف كانت لهم يكون
تحاجزت دونها الاماني واوقفت عندها الظنون
امست وعشاقها ملوك اضحت واخوانها قيون
فوجهها للعلى وفيٌّ وقلبها للهوى خؤُون
وجسمها في الورى عزيز وقدرها في الورى مهين

وكم قصور بها حسان   احب منها لها السجون
ملت سهول الحياة رغماً   وأعجبتها بها الحزون

***

في اوج تلك السماء شمسٌ   تغضي لاشراقها الجفون
لم يستقر الفؤاد منها   بها خفوق اذا سكون
وما خلا من جوى فاما   مضت شجون اتت شجون
استسلمت للزمان طوعاً   اذا قسا صرفهُ تلين
تشتاق في عزها ذويها   وحصنها دونهم حصين
حتامَ هذي القيود تبقى   يا رب قد كلت المتون

كلما اومض بأُفق الغرب بارق هاج منا شجوناً . وكلما سرت من نحوهِ نسمة اذكت في افئدتنا غراماً . يا رب . ما تلك المحاسن التي يرنو الحليم اليها صبابة ؟ كل النفوس لها نوازع . كل الآمال عليها عواكف ننادبها فنستلفتها ثم نبتهل فتستعطفها ثم ندعوها فنستجليها . فاذا امكنتنا من نواصيها وسلس بأَيدينا قيادها اذلنا مصوناتها وشوهنا محاسنها ومسخناها مسخاً

بالامس كنا نادي . يا حرية يا حرية . يا فتنة الشعوب وعدوة المستبدين ومرتع الآمال ومسرح النفوس وشفاء الصدور

وحياة الممالك . فلما استجابت دعاءنا واقبلت برضائها علينا تجاذبنا غدائرها وتنازعنا حليها ووصلنا القيود التي فكتها عن سواعدنا لنشد بها سواعدها

قرأت في طنين خبراً ما وددت ان اقرأه ولي ما تشرق عليهِ الشمس. فليستمع عبدة الحرية وليبكوا كما بكيت وما بكت عيني فدمعي في الحوادث غال . ولكن بكى فؤادي ودمعهُ متواصل الجريان :

.

بالاناطولي قضاء اسمهُ «دوزجه» بهِ رجل يدعى الحاج اسحق !!

كان في دولة الاستبداد موظفاً في ادارة الخراج بذاك القضاء . وكان لهذا الرجل جارية اسمها ملك انفدها رشوة الى بعض الاكابر بالاستانة . فلما اعلن الدستور رجعت الى بلدها . فطلبها اسحق ورفع امرها الى المحكمة الشرعية هناك فقضت لهُ بأخذ الجارية ولم يجدِ دفاعها عن نفسها فتيلاً . وحين اعيتها الحيل فرت مختفية تريد الاستانة لترفع بها ظلامتها الى الحكومة. فأرسلت حكومة «دوزجه» رسالة برقية في طلبها فقبضوا عليها في «آطه بازار» واسترجعوها صاغرة الى من ينازعها حريتها . وقد غلب الخوف اختها حتى قضت فزعاً

بعثت هذه المظلومة كتاباً الى طنين تستنجدها بهِ على ظالميها
ودافعت طنين عن الحق دفاع الابطال

هذه القصة اذكرتني اخرى مثلها . جرت في نحو سنة ١٩٠٥ بسيواس قبل اعلان الحرية وأنا اذ ذاك منفي بها . وذلك ان رجلاً اسمهُ الحاج مقصود هو من قرية من قرى العزيزية يقال لها «جامورلي» كان ذهب الى حلب في جماعة من رجالهِ فاختطف من احدى القبائل صبية تدعى فضة. ثم جاء بها الى بلدهِ وأقامت معهُ بضع سنين حتى اذا صارت شابة حملت منهُ كرهاً وما زالت تترقب الفرص الى ان سنحت لها . فشكت ما بها الى رجل من قريتها اسمهُ غنيمت ففرَّ بها ليلاً حتى دخل بها سيواس . فلما كان الصباح قصدتْ الى الوالي وهو الشهم الهمام رشيد عاكف باشا احد اعضاء مجلس الاعيان الآن ونجل الرجل الشاعر الحر عاكف باشا الشهير. فأمر بجعلها في داري وأخذت المحكمة تنظر في امرها . والحاج مقصود اودع السجن ولكن بقي اعوانهُ يسعون في الارض فساداً. فاستمالوا القاضي اليهم واغتالوا الذي فرَّ بها فقتلوهُ ليلاً وهو راجع الى القرية وامر القاضي بارجاع المرأة الى الحاج مقصود ولكنني لم افعل . ثم جهزها الوالي واعادها الى اهلها بعد ان وضعت بنتاً حرمت

محبة الاب وهي في بطن امها

اما بعد فالشكايات جمة ولكن من يسمعها والجراحات دامية واين من يأسوها . ابتلانا الله باناس لا يفقهون قولاً ولا يرتضون بنصح . فهم الحوائل بيننا وبين كل سؤدد وهم الموانع دون كل مكرمة . نسميهم مسامحة اخواناً وانهم لاخوان السوء واعداء الوطن . اذا اشتدت بهم شهواتهم زاغت ابصارهم وعزمت نفوسهم ووقفت الاهواء بينهم وبين الاحلام

لست ادري ما يبتغي الرجل من فتاة يبتاعها بدراهمهِ ليشركها في حياتهِ ويقاسمها افراحهُ واحزانهُ كما يقاسمها نعمهُ وامواله . اما فؤادها فموصد بابهُ في وجه محبتهِ واما نفسها فحائمة على غير ودهِ . لا يقدران يستخلصها لهواهُ ولا يدعها تختار هوى لها . كالغراب يخطف قرص الصابون لا هو يأكلهُ ولا يتركهُ لصاحبهِ فينتفع بهِ

الفتاة التي تطأُ بساط العز وتتهادى في مطارف النعمة وتتقلب على حواشي الملك ويقول في اترابها شوقي بك :

امضى نفوذاً من زبيدة في الامارة والامير

لو خلا بها من يستخبر فؤادها لقالت :

ولبس عباءة وتقر عيني احب اليَّ من لبس الشفوفِ
وبيت تضرب النكباءُ فيهِ احب اليَّ من قصر منيفِ

ازدحمت قصور الظالمين بالكواعب الاتراب امثال الدمى. حبستهن عن العباد كرهاً ثم جادت بهن للعباد كرهاً. وقد يرغم الزمان على السماح اذا طحنت حوادثهُ شم الهضاب. ذلك ما يعظ وهيهات المتعظ

نفسي فداءُ ارواح صعقت بين الاسوار المرفوعة والسجف المسدولة لم تمتع بنظرة الى هذا الوجود الحر في سمائهِ الضاحية ورياضهِ اليانعة وتلاعهِ الزاهية وانهارهِ الدافقة واطيارهِ المتناجية. اذا استل الزمان سيف الصبح من غمد الليل تفزعت ووقفت تلقاءَ القدر ضعافاً. مثل هذه خليقة بأن يبكى عليها لانها تموت قبل ان تولد

تستخف بعض النفوس وقر الاثم فتستحدث وقراً. على انهُ سيأتي عليها حين من الدهر تنوءُ فيهِ باعباءٍ ثقال. يا ويل المورطين في شبهات الجهل. اظلمت عليهم ليالي الحياة فلا يبصرون ما حولهم ولا تزال في العمر بقية وفي الدهر متسع لو شاؤُوا انتباهاً. غير اني معزيهم عن ذلك بالصبر الجميل

الحاج اسحق والحاج مقصود. لله فرسا رهان يتسابقان الى

غاية واحدة · حين مدّ احدهما يمينهُ الى قبر النبي زائراً وطاف بالبيت واستلم الركن هل حسب نفسهُ يقرض الله سابقاً ام هو يعلم انهُ اغضبهُ لاحقاً · تحج المطايا ولا تحج الركبان · والقطار الزافر الصافر حين يطوي الفدافد والتنوفات لاكبر عند الله ثواباً

الغرب بل مصر بها اناس يحمون الحيوان ولا يدعون ابن آدم يستبد بهِ في جر الاثقال وطي السرى وبنات آدم تباع كما يباع الببغاء والبلبل وعصفور قناريا لتكون في اقفاص من الذهب تطرب بصوتها وتعجب بحسنها ان هذا لهو البلاء العظيم

اما لو كان الامر بيدي لأَلفت مجتمعاً من اهل النجدة وحاربت هؤُلاء التجار تجار الاعراض والارواح وقلت يا اخواتي هذا ملك الله امرحنَ في ارجائهِ بسلام

حرية الفكر

نحس بآلام بين احناء الضلوع فنتكتمها صبراً ونسكت عليها خيفة . لو كان هذا الصبر في موضع يجمل فيهِ لنطق من جوانبهِ الثناء . ولكنهُ قصارى نفوس جبنت ونصيرها الحق واقصرت وشأوها بعيد

تغلبت سورة الجدل على سورة الدليل وبات كلام الانصاف والصمت احب منهُ الى الناس . ألا قاتل الله اللجاج . لا العقل اغنى في الغلبة على سلطانهِ ولا الهمم مضت في التملك على لجاجهِ . كلما جهر بالحكمة ناطق تألبت عليهِ عصب الغرور فسدوا بايديهم فمهُ . يا ليتهم يجعلون اصابعهم في آذانهم تصامماً او يلفتون وجوههم الى ورائهم اعراضاً . ذلك اذن يهون . يحجبهم الصواب فلا يلبثون ان يقبلوا عليهِ . غير انهم يعتدون فلا يدعون مكلمهم يكلمهم فكيف يجدي فيهم نصح الناصحين

انما يقبل القول بعد سماعه ويرد بعد سماعه . وهذا البلد يتعجل اهلهُ الحكم سواءٌ عليهم اصابوا ام اخطأوا . يريدون وليس

الذي يريدونهُ صواباً ولكنهم يحاولون ان يجعلوهُ صواباً . هذا محال . حقائق الاشياء لا يدخلها تغير . ومن لم يكن معهُ الهدى عليهِ ان يكون مع الهدى . اذا رام رشداً

قلت في احدى الصحائف السود التي تقدمت كلاماً على الاضاحي فهاج قلوباً استوطنها التعصب وهاج عليَّ اهل الشر من المخضرمين . عفا الله عنهم ماذا يبتغون ? طوت الايام برد الشباب وانالتنا من التجارب ما لا مندوحة فيهِ لجهل . ان يستطيلوا فقد استطال اسلافهم من قبل . انا ابن عصر عيت فيهِ الالسن وافصحت بعبرها الايام . ولي بمحمد عبده وقاسم امين اسوة حسنة . بل لقي قبلهم الويل حتى الانبياء . استنجد ابن عمران بالهرب واعتصم بمنفرج البحر وصلب ابن مريم وهاجر من وطنه العدناني عليهم السلام . جاوءوا من قبل الله فلم يشأْ الناس ان يسمعوا كلام الله . فما ظنك بمثلي وهو اذا عدّ الرجال كان في آخر ياتهم بل من النزوائد في اعدادهم

على انني لا اعجب من اهل القدم والمتحلين صبغة الدين وانما اعجب من قوم لبوسهم لبوس اهل التمدين وما آكلهم ما كلهم . يطاف عليهم بالآنية والجام في مجالس كأَنها ديباجات الآفاق ثم يصبحون فيقارعون الناس بالدين . يرموننا بالكفر والمروق والزندقة ليثيروا

علينا اشياءهم . وما نبالي نحن من اشياعهم . ثم قلوب نيطت بصدور لم تتخذ درعاً سوى البأس الشديد . واذا كان اهل البطل لهم جرأة ببطلهم فان لأهل الحق جرأة بحقهم . ثم اني اقول :

جاء شقيق عارضاً رمحهُ ان بني عمك فيهم رماح

هلاَّ وعظتهم مصارع الباغين واسترشدهم ما يلاقون من اهوان الناس فكانوا من الحكمة بالمكان الذي ينبغي ان يكونوا بهِ . ماذا لهم ان يسمعوا وان يعوا . ليس في عرفان الحق من حرج . والحق سهل المنال لا يستعصي على من يحاولهُ

اقضي ليالي المحن مكباً على اوراق احبرها بما يملي عليَّ فؤادي ومن كان ترجمان فؤادهِ تخاطأتهُ نبال اللائمين . ادير عينيَّ واجيل فكري فتتعارض المشاعر والمدارك . تناغيني حقائق الاشياء فاجتلي محاسنها في مرآة الافق وبساط الارض ومثنى السحائب وموجات الاهوية . تعالوا انظروا بعيني ثم لوموا . كيف تتساوى في المشاهدة عيون ناظرة واخرى مطبقة جفونها

تعالى الله وتعالت ادیانهُ عما يفتري عبادهُ . يذكرون الله ثم ون . كذلك فعل الناس بمن ذبحوا واي سيف لا تنبو ـهُ هو ذلك الدين . بهِ يغالبون كلما تساقطت حججهم . وبهِ

يحاربون كلما اجفلت نعائمهم . بالله ربنا وربكم . اتنطقون عما في قلوبكم ام هو شأن جديد لكم مع احرار العباد . من اقوى منكم من الله حجة؟ لقد قامت حجتهُ وحقت كلمتهُ ونحن مصدقون من قبلكم حين كانت في بعض الصدور وساوس تتصلصل بين الترائب والنحور

آه يا مصر . يا عروس ابناء الشمس وبلد المجد منذ خالية العصور . تفتأُ الايام تستزيدك حسناً كلما تقادم مداك وتكسبك رونقاً يستعيض ما خلا من صباك . ما تمكنت من كمال الاَّ ادركت بعدهُ كمالاً كل شيءٍ فيك ترقى جمالاً وظرفاً الاَّ بعض النفوس . وددت لو ان في الدهر الشيخ نفساً ينفخهُ فيها . عسى يذكي جذوتها الخامدة او يتجلد مرة حتى يقدح زندهُ فيأْتيها من الشباب بقبس جديد

رجال يمشون وعليهم شملات صوف وهم في موكب النشأة العصرية . هذه ثياب جاهليتكم فاين ثيابكم ؟ ما رأَيت كهذا عناداً في الحق

غداً تختتم انفاسنا المعدودة وتكف هذه الاقلام من صريرها وتبقى في مصونات الطروس آثارها . تشهد لنا عليكم . انتم اعداؤُ اليوم . وابناؤُكم انصارنا غداً . ان نشكوكم وحدنا بل سوف نشوا

ومعنا اعقابكم وانعمت الشهود يومئذٍ • يقولون آباؤنا كذبوا وهؤلاء صدقوا

سلام على رجال ينازلوننا ضعافاً . لنخفض دونكم صدور الاسنة اشفاقاً ولنجادلنكم جدال من لا يعوزهم الدليل • ميلوا على جوانبنا انما تميلون على آبائكم • والحق لا تنهزم كتائبهُ • غداً تخفق على رؤوسكم اعلامهُ وترتفع في انحاء بلادكم صيحاتهُ والله أرحم ان يؤاخذ على الجهل اناساً جنى عليهم كبارهم وفتنهم صغارهم حسبنا ان نقول

ولو ان سافي الريح يجعلكم قذى لأعيننا ما كنتم بقذاة

اما انا فليشهد قراء اقوالي اني لا تزحزحني جلبة المتهورين انا اغني الحق وكلما صاح به الصائحون رن في اذنه مني ما قاله ابو الطيب

فدع كل صوت بعد صوتي فانني انا الطائر المحكي والآخر الصدي

احد المشاهد الرائعة

(جراغان في اثناء اللهيب)

هـذا قضاء الله ام غدرُ ماذا اصابك ايهـا القصرُ
اعلى مراد رحت مضطرماً من غيرة اذ ضمهُ القبرُ
ام انت ممن فيك منتحر يا قصر ام فيما جرى سرُ
نبكي نعم نبكي على امل فيك انقضى وقد انقضى الامرُ
عن اربعين وخمسة سلفت مـا هكذا يستوجز العمرُ
اتظل دور المجـد آهلةً فينا ودورك بينهـا دثرُ
ويح القلوب وكنت حاجتها ان لم يجدها بعدك الصبرُ
يبقى مصابك وهو يذكرنا لو كان ينفع مثلنا الذكرُ
برا (فروق) تباهيا زمناً فانفك بر والتظى برُ
شطرا محاسنها التي اشتهرت إما شكا شطر بكى شطرُ

***

لما استقل بك اللهيب ضحى وبدا خلال دخانك الجمرُ
وقف الزمان عليك منتحباً واقام يندب حسنك الدهرُ
والزهر قدماً كنّ حاسدة لما اصبت بكت لك الزهرُ

الشمس اختك ثمّ كاسفة ... لبس الخسوف شقيقك البدرُ
او ما رآك البحر ملتهباً ... بل لو رآك لجاءك البحرُ
فيجيش للنيران غاربهُ ... ويبل حرّك ماؤهُ الغمرُ
ركضت لنجدتك الجموع وقد ... خفقت لها راياتكَ الحمرُ
كم جحفل مجرٍ اليك سعى ... فارتد عنك الجحفل المجرُ
لا البيض اغنت في مناجدة ... لما اهبت بها ولا السمرُ
طلبوا المياه لكي تغاث بها ... فنأى طريق دونها وعرُ
وعلا الدخان ذراك فاختبأت ... في جنحهِ آياتك الغرُ
فكأنها صورٌ محركة ... وكأَنهُ من دونها سترُ
قد كنت ديواناً قصائدهُ ... تلك البدائع فامّحى الشعرُ
سالت سطورك من صحائفها ... فغدت وما بصحيفة سطرُ
وانساب مهلاً وارتمى حمماً ... ذاك اللجين وذلك التبرُ
وقفوا امامك ذاهلين وقد ... ملك السبيل عليهم الذعرُ
فاخذت تنقص في نواظرهم ... ويزيد في اطرافك القفرُ

***

يا منزل الاحرار اذ ملكوا ... يبكي عليك مرادك الحرُ
يبكي عليك وان اوى جدثاً ... وعلاهُ بعد سقوفك الصخرُ

هذي الطول فاين تنتحب اا اطيار فيك ويضحك الزهرُ
ما ثمّ حُيست الاسود ولا كانت تسير ظباؤك العفرُ

***

يا عام جاءَ اخوكَ يغدرنا ومضى فقلنا قد مضى الغدرُ
أَترى فروق ومصر اذنبتا شقيت فروق وبنتها مصرُ
غناك شوقيها وحافظها وهممت لو لم يعصني الفكرُ
وهباك شكرًا لست صاحبهُ سالفًا . فابطر قلبك الشكرُ
فلئن تكن لاخيك معذرة هل انت عندك مثلهُ عذرُ
فلاُلبسنك من محبرّة يجري علَى اعطافها الحبرُ
مغبرة تسعى مغبرة كلماتها وسطورها غبرُ
يا عصر ان لم تستقم معنا فلنشهدنَّ عليك يا عصرُ
تبقى جدود الناس ناهضة وجدودنا في خطوها العثرُ
هذي خطوب ليس يحملها جلدٌ وينفد عندها الصبرُ

بطرس غالي في موكبه الاخير

مشى بعاصمة مصر يوم الثلاثاء ٢٢ فبراير سنة ١٩١٠ مشهد لم تشهد مثلهُ . ذاك مشهد بطرس غالي العظيم . من كرسي الرئاسة الى مضجع الابد . لله درك من ظاعن

القى يراعهُ الذي سيرهُ منذ كان في تدبير مهام القطر وطوى صحائف نمقها بما املتهُ عليهِ مصلحة البلاد وقام مسرعاً لداعي حمامهِ . كذلك كان يسرع الى داعي نخوتهِ . لك الله من شهيد قوم مضرجاً بدمهِ وكأنهُ مضمخ بطيبهِ . كرمت حياً وميتاً . فما ابكيت عيناً الاَّ يوم مصرعك ولا اشكيت لساناً الاَّ يوم فراقك . ان افصح الافواه شكاية من غدر لهي جراحاتك الدامية . كل قطرة من ذلك الدم البريء عند الله اجرها وعلى الانسانية والعصر العشرين عارها

قال النعاة : قتل احد الباغين بطرس باشا غالي . قلت : لقد قتل مصر

ما ماد الهرمان ولا صاح بالويل ابو الهول ولا غيض النيل ولا خسف الصعيد ولكن قال عظماء الغرب : مصر في حالة يخشى على الامن منها

يا ويح هذه القلوب ما اقساها · تسرع اليها عوامل مختلفة من الشر فتتهيأ لقبولها واذا سرت نحوها نفحة خير قويت عليها مغاليقها · وكم من حياة طيبة هي في قبضة خبيث يختطفها · وحين تجتمع على البث قلوب تساوت في الحرقة وتعلو النوحات من جوانب بيت ازمع غاليهِ ويهال التراب على جسد نشأ في النعمة واقل نفساً لم تشق نفساً ماذا يستشعر اهل الاعتداء

تهادى نعش بطرس الجليل بين عباد الله من اجنبي ومصري ومسيحي ومسلم وموسوي وكل امرءٍ ابصر ذلك التابوت علم ان فيهِ قتيلاً · شهيداً · مظلوماً · لا الجياد المطهمة ولا عربة المدفع ولا اكاليل الزهور ولا الاعلام ولا الجنود ولا السراة ولا الاقيال لتخفف عن النفوس هول ما راعها · تلك زخارف زادت المصاب الَمًا وزادتهُ على حق عظماً

بالشرق داءٌ عقام لن يستأصل او يميد سرواتهِ ويخلي دورهُ ويطحطح الشم من ذراه · مبيد اهل القرون الاولى مفيض بحار الدماء مفرق بين الآلاف مزعزع اركان الممالك —

حسبهم الله · اقلقوا النيام في مضاجعهم واتعبوا الرائحين والغادين في طرقاتهم ودوت صيحاتهم في الآذان حتى كادت تصمها

اعولوا ثم اعولوا ليحيَ الدستور ليحيَ الدستور ليحيَ فلان وليسقط فلان . أَمن اجل هذا كانوا يريدون الدستور ؟

قام بالامس احد قراء سورة يوسف فاصدر جريدة دينية جديدة ليجعلها احدى البلايا على الدين و بنيهِ · ماذا تريد بطبلك بهذا المطبل · أنبي انت ام امام ام فقيه ام سياسي ام اديب ام ثرثارة · تريد النعيق عَلَى اطلال بلد لست من اهلهِ · حسبك واحدة ارتنا نفثاتك . تلك نفثات ستفر غداً منها وستظل هي على اثرك وان الله لبالمرصاد

قف بين ربوع مصر وانشد

وانی قد جنيت عليك حرباً   تغص الشيخ بالماء القراح
مذكرة متى ما يصحُ منها   فتى شبت لآخر غير صاح

بين العظاة و بين قلوب الطغاة سدود لا تخرقها الاّ صدور الحوادث فاذا كان ما ابتغتهُ الغواية تراجعت القلوب نهاها ولكن بعد ان يفور التنور ويتفاقم صدع البلاء

رأيت بعض الجرائد ثائرة على الامة القبطية . فأَوجست خيفة · وقد حدثتني النفس ان اصيح بها مسترجعاً · ثم علمت ان تلك صيحة يرن صداها ولا تصل الى سمع من تلك المسامع الصم

فآثرت السكوت وفي العين قذى وفي الحلق شجاً وهذا الخطب الذي نكبره اليوم لاحدى عواقب تلك الجهالات

اثم هذه الامة على — رجال صحافتها — يأتيهم الدعي من الادعياء وفي يده ورقة بها ابيات لو قرأها اكبر شاعر لمحا الله من سجيته عمل الشعر او بالمقالة وليس بها شيء يصح ان يقال ثم هم ينشرون له كلامهُ ناعتين اياهُ بالشاعر المفلق والكاتب البارع والفاضل الاديب حتى لقد اصبح البقالون وماسحو الاحذية شعراء ادباء كتاباً فضلاء وباتت دفة السياسة المصرية بايدي قوم عجز احتلال الانكليز اكثر من ربع قرن ان ينعل اقدامهم الحافية . اولئك الذين يتصايحون قائلين ليحيَ الدستور . اولئك الذين يتخذون من الدين سهاماً يدمون بها الافئدة . ضالين ومضلين وبئست الخلتان

ما اريد بمقالتي هذه ان ارثي فقيد مصر الغالي . فذلك ما استودعتهُ سجية الشعر . ولتأتين الرواة غداة قصيدة كذنب هلي تستعاد ثم تستعاد الى ان يمل الناس القريض فلينتظرها ملوك الكلام . ان بها المواضع للسجود . وهذا كلام تعجلتهُ نفس على مرجلها واشتد وقودها . بلى هذه شقشقة هدرت ولا ادري متى تستقر بني مصر هذا كلام تتناقلهُ الصحف غداً في اقطار الارض .

حيث ينطق ناطق بالضاد . هو حجتي عليكم فانظروا ما انتم فاعلون · إلاَّ تريدوا الانصاف ترغموا عليهِ وفي الحكومة بأْس وعدل يستوقفان العدوان · فسيروا خير لكم من ان تساقوا · ولا تحسبوا ان اعقلكم اكثركم كلاماً

اليوم عدمت حكومتكم وزيراً عاقلاً وَلِيَ الرئاسة · وثكلت مصر خير وطني اظل نظارتها · ويقول ذو اليد التي اشلها الله انهُ خدم الوطن وخلص الوطن ولا يدري انهُ اجهز على الوطن

بني مصر ان لم يمت فقيد مصر بيد قاتلهِ فما هو الاَّ ميت كما سنموت · غداً تخفف الايام عظم مصابهِ حتى عن قلوب ذويهِ · اما عار قاتلهِ فقد سجلتهُ عليكم تسجيلاً

عجباً للفتى منا يخطر خطرات العروس ليلة زفافها · يرى الى الدجاجة وهي تضطرب مذبوحة فترتعد لها فرائصهُ ثم هو يطاوع غرورهُ وينقاد لغوايات قوم فيقتل الوزير في دار الحكومة . وما جنى عليهِ الوزير ولا جنت الحكومة ولكن نفسهُ احبت الجناية · خرجت من مصر وفتيانها كآرام الصريمة في غير نفار ورجعت اليها وكم بين فتيانها من الذئاب · ما هكذا كان العهد بابناء النيل · أَورقة تطبع كل يوم ليلف بها الزيتون والجبن تنسيهم القانون وتشط

بهم عن مهيع السداد ؟ واخجلتاه ! !

ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم . صاح اكثركم مذكراً بحادث دنشواي وتشدق آخرون باتفاق انكلترا ومصر على السودان وشكا غيرهم من قانون المطبوعات . وهل كان لهذا الوزير هذا القدر من التفرد بالارادة والخيار في الفعل ؟ ومن اهاج اهل دنشواي ومن اتى بقانون المطبوعات . سائلوا تلك الجرائد التي تود ان توقع البلد في الهلاك عسى ان توافيكم بجواب سديد

الاقباط هم اولو مصر قبل كل مصري . ما زال الجور يتصيدهم حتى قلوا عدداً ووفرتم وخسروا وكسبتم ثم منَّ الله بعدله فقالوا نحن اخوان أفلا تريدون ان تكونوا لهم اخواناً ؟ فما لهذه البراثن اذن داميات ؟

دعوا هذه الاضاليل وميلوا على اخوانكم ميل ود وصفاء وقفوا امام الحكومة العادلة التي تشتمونها كل يوم الف مرة وتحنو عليكم كل شارقة الف مرة . وقولوا لها ايتها الحكومة نحن واثقون بعدلك . فقي بنا عند حد الرضاء وذروا تلك الصحف تموت وبافواهها لجم من العجز تلوكها الى حين

سلام عليك ايها الوزير الغالي في جدثك وعزاء لمصر على

فقدك الاليم ولتهدأ قلوب امتك الجليلة . ثم قلوب لا تخفر لكم ذمة واقلام هي سيوف الحق . والحق لا تنهزم انصاره

الشقاق

تركي وجع في قلبه فهو ينادي اخوانه العرب :

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا   لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا ان تهينونا ونكرمكم   وان نكف الاذى عنكم وتأذونا

الآن لما امال الله عمود الظلم واعتدل الحكم في نصابه يبرز لنا من مكامن الفتنة من تساوى لديه حاضر وماض . اين كانت نخوتك بالامس ايها الناطق المرقش عنا ؟

قال الداماد فريد باشا كلاماً انطقه به اتصاله بالاسرة الحاكمة. اراد تقرباً بغير الانصاف ففعل . كذلك من اوتوا الجاه ونالوا الرفعة من غير كد . ونحن ما ذنبنا حتى نشتم وماذا جنينا فنؤاخذ عليه

ابداً نزاع بصيحات . تكسرت النصال على النصال . تزجي الينا كل داهية ناد . اختلفت النغمات والغناء واحد . يشكون الترك يذمون الترك . عفى الله عنهم ماذا لهم عند الترك ؟

رأيت في مقطم امس مقالة مذيلة باسم عزت الجنـدي · جعلها من صدره بمكان القلادة . هذه احدى نافثات السمام · بلى هي احدى المفرقات · اخال مقطمنا ذكرها ليذكر هذه التي اخط خططها واجزع انماطها · حبذا المنبر يتبارى عليهِ خطباءُ الاقوام · لاثأَر الله من خانتهُ مواقفهُ منا

بي شجون وكنت في حاجة الى الافصاح ومن جاش حميهُ وغلى مرجلهُ استطاب المقـال . فاجملي ايتها النفس صبراً عسى تنجلي غمامة هذا العارض المتأَلق عن صيب يدع الغدران مترعة ويسقي عطاش القيعان

شهد الله وكل عثماني حر يكون قرأ لي شيئاً اني لا اتعصب للدين ولا للجنس · انا تركي وابغض عباد الله اليَّ تركي يعتدي · احب العناصر العثمانية كلها وآخذ بناصر المستضعف منها . ثم أحب العرب حباً خالط الروح وجرى مجرى الدم من العروق وأنا عربي الادب والقلم عربي النزعة ومن ابغض العرب فانا مبغضهُ · اولئك اخواني الذين اغنيهم فيطربون واحدثهم فيقبلون عليَّ بالسمع · هكذا عهد العرب الكرام باخيهم هذا

غير اني لا اكذبهم · اني كذلك لا احب من يسب الترك

ولا من يكون لهم عدوًّا وكذلك العرب لا يحبون من لا يحب اخوانهم · واذا جرى بين العرب والترك شر · اكون يومئذٍ بمعزل عن كليهما داعياً عليهما بالفشل معاً

واني لا انكر ان في الترك اناساً يبغضون العرب واني لا اجهل ان في العرب رجالاً يبغضون الترك · كل امة بها سفهاء ولا تكون امة باسرها سفيهة ابداً · وعقلاء الامتين متفقون على ود لا يتطرقهُ تغير على توالي الاعصار

زعم عزت الجندي ان الذين خانوا الدولة هم اتراك ثم ذكر رجالاً منهم محمد علي الاول مؤسس الاسرة الخديوية بمصر. سامحهُ الله · ان محمد علي خالي · جدتي شقيقتهُ · لا تصح شهادتي لهُ · فانا ادع الحكم في خيانتهِ ووفائهِ لاهل الانصاف

ولكن مصطفى فاضل قائد كتائب الحرية ومدحت ابا الدستور تركيان · الصقوللي والكوبر يلي ايضاً تركيان وغيرهؤلاء كثير اذا شاء الجندي ذكرت لهُ اسماءهم وعددت ما تيسر من اعمالهم

وما لنا والفخر بمن ماتوا · نحن في حاجة الى العمل ولسنا في حاجة الى القول · فلينكر على الترك ما شاء وليتهمهم بما شاء · كل

ذلك لا يخرجهم من العثمانية ومن حق العثمانية ان يكون كل ابنائها اخواناً لا متغايرين ولا متحاقدين

ارني ايها الكاتب الجامح قلمه تركياً يرمي العرب بمثل ما رميتنا انت بهِ وانظر ما اقول لهُ . اني الين لك المقال لا اكراماً لك ولكن جرياً على آدابي وآدابي عربية . ثم اخشى ان يقول اخواني العرب ان ولي الدين متعصب وان تذهب عني ثقتهم وهي لعمري ثقة اغلى علي من حياتي

لك ان تلوم الترك ولك ان تبغضهم اذا شئت ولكن ليس لك ان تسبهم . هذا عيب لا ارضاهُ لعثماني في الوجود

اذا قرأ كلامك هذا احد جهلاء الترك ورد عليك بما يمس بهِ قومك وتعاظم الشر بين الترك والعرب وتساقوا كؤوس الموت وخلت الديار وجرت الدماء . اتكون افدت بلادك ام تكون نفعت العثمانية . اذا تغلب العرب على الترك او فاز الترك على العرب كان الخطب واحداً . ما في المصيبتين واحدة تفضل الاخرى . فماذا تبتغي بهجرك ؟

آلمت قلوباً آلمها الزمان بحوادثهِ . انا ما رضيت النفي سبع سنين ولا زرت السجن بين الاسنة من اجل الترك وحدهم بل من اجل

العثمانيين . ولا امسكت هذا اليراع منازلاً كل معاند الأمحبة في العثمانيين . ولكنني رميت في قومي بما لم اؤمل وجاءت نعمتك هذه كالملح على الجرح . ولو استبقيت مثل هـذا القلب لاستبقيت وداً جميلاً

كفى كفى . ان كانت هذه الحوادث لا تعظنا ان نكون من الجاهلين فقد اضمرت الايام لنا ما اضمرت . فاكتب ايها الكاتب.

ولو ذات سوار لطمتني . ما انت بالحكم الترضي حكومتهُ

ان كان منزلتي في الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت ايامي

هذا ما استطعت ان اكتب بيد راجفة وفكر شتيت . اما الداماد فسيكون لي معهُ كلام طويل.فلينتظرهُ على مقعدهِ الوثير وفي جاههِ العريض . ان في بعض الوعد معاني الوعيد